الكتاب الثانى

الهلالية فى الأدب الشعبى

الباب الأول

السيرة الهلالية

عندما شرعنا فى دراسة هذه السيرة بأقسامها وأجزائها وتتبعنا شواردها المتناثرة ، كان من واجبنا أن نرد إليها ما تفرق عنها من عناصر أخذت تنمو بمفردها حتى استوت عملا فنيا قائما برأسه أو يكاد ، يتحدث عن فرد واحد من أفرادها أو جيل واحد من أجيالها أو فترة واحدة من الفترات التى استغرقتها أو منزل واحد من المنازل التى انتشرت فيها . وكان من الضرورى كذلك أن نخرج من ساحتها ما علق بها من أوشاب غريبة عنها ، وما امتزج فيها من أحاديث لا شأن لها بها ، وأن نخلصها قدر طاقتنا من تلفيقات المنشدين وإطالات النساخ واستطرادات المتعالمين ، ولم يكن المعول فى هذا كله على المخطوط أو المطبوع وحدها [1] . فان ذلك لا يغنى الباحث شيئاً ، ولعله يوعر طريقه ويضاعف الصعاب أمامه ويطمس معالم الوحدة الواجبة فى كل عمل كامل أو متكامل . ومن ثم عكفت على الكلمة المكتوبة والملفوظة [2] على السواء ، واستخرجت ما وسعتنى الطاقة ، الخطوط الأساسية البارزة لهذه السيرة الطويلة .

ولكن كيف السبيل إلى تقسيمها ؟ . . . لقد ألف المنشدون أن يجعلوها دواوين مستقلة وما زالوا بها يضيفون ويحذفون حتى أفقدوها ما ينبغى لها من التناسب

---

(١) انظر بيانها فى تأريخ السيرة فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

(٢) قام ذلك على الاتصال الشخصى بين كاتب هذه السطور وغيره وعمدة المشتغلين بانشاد هذه السيرة فى أيامنا .

فيما بينها من ناحية ، ومن التتابع الذى يقتضيه تسلسل الأحداث من ناحية أخرى . ودرج النقلة والناسخون وتبعهم الطابعون على تقطيعها إلى أجزاء دون احتفال بترتيب زمانى أو مكانى ، أو ضرورة من ضرورات السمر والانشاد . وأغلب الظن أن مقياسهم إنما كان عدد الكلمات أو الصفحات ، ويذهب كثير من الباحثين إلى أن هذه السيرة يمكن أن تندرج فى ثلاث حلقات . وكان أساس التقسيم مكانياً ، فقد جعلوا الحلقة الأولى تتصل بنشأتهم واستيطانهم بلاد السرو وعباده . والحلقة الثانية تتحدث عن نقلتهم إلى نجد وما كان لهم فيها من مشاهد وأيام . والحلقة الثالثة تستوعب تغريبتهم وانتصاراتهم على زناته وفتوحاتهم للأمصار والقلاع [1] .

أما نحن فرأينا أن نعدل فى هذا التقسيم ، لأننا نؤثر الأساس الجماعى . ومن ثم قسمنا السيرة على الأجيال التى قامت بأحداثها فصح عندنا ثلاثة أجيال .

الجيل الأول

ويبدأ الحديث عن هذا الجيل من العرب بجدهم الأعلى الذى تفرعوا عنه قبائل وبطونا تتحالف حيناً وتختصم أحيانا ، وهو «هلال بن عامر» . وكان لا بد للمنشئين لهذه السيرة من إيجاد علاقة قوية بين هذا الجد الأعلى وبين النبى صلى الله عليه وسلم . فزعموا أنه وفد عليه فيمن وفد من أمراء القبائل وزعماء العشائر وبايعه هو وقومه وأبلى فى نصرة الاسلام البلاء الحسن فأسكنه النبى وادى العباس . وكان كغيره من الأشياخ فارساً قوياً عارفاً بركوب الخيل وأساليب الكر والفر ، وهو الى هذا جواد مسماح . وقد أنجب ولداً أسماه « المنذر » نشأ كأبيه مقداما شجاعا وبرز فى الغارة وأكثر من الغنيمة وترك أباه واستقل بنفسه وتعرف على الأيام

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة « هلال » ؛ الدكتور فؤاد حسنين ، قصصنا الشعبى ص ٦١ وما بعدها .

بأمير يدعى « مهنيا » و بنى بابنته « هذباء » وأقام معها أعواما لم يرزق فيها بابن . ولم يشأ أن يظل أبتر لا ولد له ، فولى وجهه شطر بلاد « السرو وعباده » وتقرب الى الملك الصالح الذى أنكحه ابنته « عذباء » . ومن عجب أن هؤلاء المنشئين يجمعون بين الزوجتين عندما يريدون الانتقال خطوة أخرى فى شجرة النسب ، فيروون أنهما أنجبتا فى ليلة واحدة ، فجاءت هذباء « بجابر » وعذباء « بجبير » وكان بين الاثنتين بعد هذه التسوية فى الانجاب ، ما يكون بين الضرتين تريد كل منهما الرجل لها ولابنها وحدهما . وما زال الخلاف يدب بينهما حتى نفذ صبر الزوج فآثر الأولى على الثانية التى سرحها ، ولم تر بداً من النقلة الى نجد .

بيد أن هذه الوحدة فى الأب والجد ، وهذه التسوية فى التشعب لم تمنع الاثنينية من الظهور ، فقد كانت بوادرها تتجلى فيما بين الزوجتين من شحناء . وحسبنا أن نتبع فى هذا المقام شجرة النسب لهذين الابنين المولودين فى يوم واحد لنتبين أصلا من أصول الفرقة والانقسام ، لا سبباً من أسباب التحالف والوئام . ذلك لأن المنشئين كانوا يصدرون عن إدراك لما بين العصبيتين من إحن وحقود . ولو شاءوا غير ذلك لجعلوا الابنين توأمين من أم واحدة ، فمن ولد « جابر » بن هذباء عامر وتامر وهشام وحازم . ومن نسلهم سرحان ورزق . أما « جبير » بن عذباء فمن ولده حنظل والنعمان ورياح . ومن نسل رياح غانم . وتبع هذا التشعب فى العصبية ، تشعب آخر يماثله فى الاقليمية . فقد أستقر ابناء « هذباء » فى بلاد السرو وعباده ونزل أولاد « عذباء » أرض نجد . وكان أولئك وهؤلاء أمراء ملكين على عشائرهم وديارهم .

ومن الخير أن نعرف هنا أن الأمير رزق هو ابن نائل ، وأن نائلاً هذا هو عم سرحان . وأراد المنشئون أن يجسموا لهفة العربى على الولد فذكروا أن رزقاً تزوج

إلى عشر نساء ولم يكن يجمع بطبيعة الحال إلا بين أربع منهن فقط ، كما يقضى بذلك الشرع الحنيف . ومما آلمه وحزّ فى نفسه أنه أنجب من زوجاته العشر ابنتين هما « شيحة » و « أتيمه » . وكما أتت إحدى نسائه بصبى ولدته مشوها لا يد له ولا رجل. وقبيل هذا الحادث غير السعيد تزوج الأمير رزق زوجته الحادية عشرة . وهى خضراء « خضرة » ابنة شريف مكه ، ومن ثم عرفت بالشريفة وأثلج صدره ما رآه من أمارات الحمل عليها . إذ كان يتوقع أن تأتى له بغلام سرى يجمع الشرف الهاشمى الى الدم الهلالى . فبعث الى الأمير غانم رأس بنى زغبه يدعوه ورجاله ليشاركوه الحفل بولادة ابنه من بنات الهواشم الأشراف فاستجابوا لدعوته وأصبحوا ضيفانه ينتظرون وإياه الحادث السعيد . واتفق للسيدة خضرة أن تخرج مع الأميرة « شمه » إحدى زوجات سرحان فى جمع من العقائل فرأت طائراً أسود ينقض على مجموع من الطير مختلف الألوان والأنواع فيغلب عليه ويقتل الجانب الأكبر منه . فأعجبت به ورفعت وجهها الى السماء تدعو الله أن يرزقها غلاما على شاكلته ولو كان فاحم اللون . واستجاب الله لها . . . وغضب الأمير رزق ولم يكن يصدق أن الغلام ولده ، ولكنه أبقى زوجته لكلفه بها وأبى على نفسه أن يرى الغلام بعينيه ، واكتفى بما سمع من المرأة التى أبلغته النبأ وحال بين الجميع وبين رؤيته الى أن جاء اليوم السابع ، فمدّ السماط وأحضر الغلام الى الضيوف كما تقضى بذلك العادة المتبعة تحمله جارية على محمل من الفضة وتغطيه غلالة لا تبين منه شيئاً . وألقى السادة عليه « النقوط » من ذهب وفضة ، ورفع أحدهم الغلالة فهاله أن يرى الغلام أسود فاحما . وكان الأمير رزق أثناء هذا كله عند باب خيمته ، فلما دخل أشار عليه معظم أصحابه أن يخلى بينه وبين زوجه هذه وشككوه فى خلقها وأعلنوا أن إبقاءه عليها يجر العار عليه وعلى قومه جميعاً فأذعن كارهاً وأرسلها وابنها الى أبيها فى مكة .

ورأت « خضرة » أن تنزل وادياً فى الطريق وألا تعود إلى أبيها متهمة فى عرضها حتى لقيها الأمير « فضل بن بيسم » رأس قبيلة الزحلان وعرف خبرها فاحترمها وأكرم وفادتها وطلب إلى زوجه أن تتلقاها ، وتبنى ولدها ونشأه مع ابنيه « مغنم ونعيم » . ولكن بركات — وقد أصبح هذا اسمه — بز أقرانه فى القوة والشجاعة وقد اتفق له أن بطش بالفقيه المنتدب لتعليمه ولداته لأنه كان يجنح إلى الغش . واستطال الصبى على أبناء المكتب الذى يتعلم فيه ، فما كان من « أبيه » إلا أن استقدم الفقيه ليعلمه فى البيت ، حتى إذا بلغ الحادية عشرة من عمره كان قد ثقف معارف الدين والدنيا مما كان يدرس فى جزيرة العرب بما فيها من علوم اللسان العربى وغير العربى والرياضيات والتنجيم والسحر والكيمياء . وتحوّل بركات إلى ضرب آخر من المعارف لعله أشد لزوما لفرسان ذلك العصر ، فقد استجاب لإشارة معلمه وطلب إلى « أبيه » أن يهدى إليه جواداً ليتدرب به على الفروسية وحمل السلاح .

ومهدت السيرة لعود الابن إلى أبيه ، فقالت إن « بركات » عندما أراد أن يطلب إلى الأمير فضل بن بيسم الجواد وحياه بتحية الصباح ، رد عليه بما يريب فى بنوته له وإن كان يقصد إعزازه وإكرامه ، فانكفأ الفتى إلى أمه يسألها جلية خبره فزعمت أن الأمير فضل عمه وأن أباه قد قتل على يد هلالى يدعى الأمير رزق ابن نايل [1] . فأثار ذلك حفيظته وصمم ليأخذن بالثأر وليقتلن هذا الأمير . ولم يكن يدور فى خلده أنه أبوه فى الحقيقة ووهبه الأمير فضل خير جياده . وعلمه الفروسية والطراد والكر والفر وما إلى هذا من فنون الحرب . وسرعان ما برز فى الركوب حتى حسده أبناء القبيلة التى يعيش فى كنفها وتفوق على الجميع فى لعبة « البرجاس » وهزم المغيرين من قبيلة « تيدمه » وقتل أميرهم عصران بن داغر ، ونحن نلتخب

---

(١) ترجم Lane مقالتها الشعرية إلى اللغة الانجليزية شعرا An account of the: E. W Lane: Mannars and customs of the Modern Egyptions ج ٢ ص ١٠٩ — ١١٠

من الحوادث الكثيرة التي أوردتها السيرة حادثة واحدة لما فيها من دلالة . . . وهي أن المنهزمين عملوا بمشورة « الجعيدى » ملك المدينة المعروفة بالاسم نفسه « تيدمه » واستغاثوا بجسار بن جاسر أمير بنى حمد فأرسل إلى قبيلة الزحلان يطالبها بخراج خمس عشرة سنة وأن تسلم إليه العبد بركات ، وكان يعتقد أنه ممن مسهم الرق ، مصفداً فى الأغلال ليقتله . وهنا أرسل بركات إليه باسم الأمير فضل يعلن إذعانه لما طلب وجاء بعبد يشبهه وشدّ وثاقه على ظهر بعير . وسار بالعبد ومعه الأمير فضل وسائر الرجال للقاء جسار و بنى حمير وعرب تيدمه . وقدم الأمير فضل إلى جسار العبد على أنه بركات فسر لذلك ومد السماط لضيفه ، ولكن بركات ظل على صهوة جواده وأبى أن يمد يده إلى طعام عدوه . وكان الباعث له على ذلك أنه إذا أكل من طعامهم أبت عليه شريعة العرب أن ينفذ فيهم ما أجمع رأيه عليه . وأخذ جسار يلحظه بعين متفحصة وسأل عن هويته فأجيب بأنه عبد ملثات اسمه « مسعوداً » واستدرج بركات جساراً وأبعده عن قبيلته وعرّفه بشخصه وقاتله حتى قتله واستولى على مضاربه . ولزمه إسم « مسعود » منذ ذلك الوقت ورأسه بنو زحلان عليهم ، وظل الأمير المطاع فيهم طوال حياته ، وألزم بنى حمير بدفع الجزية له وسار يذكره الركبان .

وتعود بنا السيرة إلى الأمير رزق فتراه يعتزل قبيلته بعدما غادرته زوجته وعاش فى خيمة من الشعر الأسود دلالة على الحزن والأسى ، واصطحب معه عبداً واحداً يقوم بحوائجه ، واتخذ منزله إلى جانب العين التى رأت عندها زوجه « خضرة » تفوق الطائر الأسود على غيره . ولم يمض طويل وقت حتى اجتاح نجوع بنى هلال جدب ماحل استمر أمداً ، فرأى « سرحان » والأشياخ من الهلالية أن يهاجروا إلى نجوع بنى الزحلان . بيد أن الجعافرة وبعض الهلالية الآخرين ظلوا مع الأمير رزق ، وكان المطاع بينهم . ولما بلغ سرحان وقومه هدفهم تصدى لهم بركات

وألحق بهم هزيمة منكرة فأرسل سرحان يستنجد بالأمير رزق فأجابه إلى سؤله ، وذكر له اسم بركات فى الطريق وكاد يعرف أنه ولده . وتساءل بينه وبين نفسه إذا صح ما توقعه فلماذا سمى بهذا الاسم ، وقد سماه عند ولادته أبا زيد . ولما بلغ موضع الهلالية المندحرين حمل عليه بركات ، وقد أخذته سورة الغضب عندما عرف اسم منازله وذكر أنه واتره فى « أبيه » . وسوّف رزق المبارزة ما وسعه التسويف وكاد الابن يقضى على أبيه لولا أن نهته أمه ونفضت إليه بجلية الخبر ، فأقر الأب ابنه واسترد زوجه واعترف بنو هلال جميعاً بمكان بركات من أبيه ومنهم . وزوّجه أمير الزحلان بابنته « غصن البان » ، وأخذ صيته يعلو على الأيام حتى أسماه قومه « سلامه » كناية عن الأمن الذى يجدون فى كنفه وأصبح يعرف بأبى زيد الهلالى سلامه إلى جانب اسميه السابقين « مسعود وبركات » . ولم تنس السيرة أمر سرحان ، فقد ذكرت كيف تعرف إلى الأميرة « شما » وكيف وقعا فى أسر الافرنج وما زالا يعملان الحيلة حتى خلصا من الأسر ، وخلف حسن على الإمارة أباه سرحان وتزوج من « خرما » ملكة اليمن بعد أن أعانها على المجوس عباد النار الذين كانوا حربا عليها ثم عاد بها إلى قومه .

« وأصاب القحط بلاد السرو بو يلاته فأجبر أبناء جابر من الهلالية وأحلافهم على الهجرة إلى نجد وكانت تقيم فيها العشائر الهلالية الأخرى من ذرية جبير ، أو بتعبير أدق قبيلة زغبة ، وعلى رأسهم غانم وابنه دياب . ونحن نمر كراما على ما كان لهم فى الطريق من نصر على يهود خيبر . . . وإذا بلغوا نجداً فرح بهم غانم ورهطه وأحسنوا لقاءهم ، وهنالك تزوج حسن بن سرحان من « نافلة » أخت دياب بعد أن وعده بأخته « نوربارق » المشهورة بالجازية . وفى هذه الفترة غلب الهلالية على الأمراء المجاورين ، وبخاصة الهيدبى أمير النجود السبعة . ثم ثارت الإحن القديمة بين أبناء الأعمام أو بين أبناء « جابر » وأبناء « جبير » أو بين أبناء « هذباء »

وأبناء « عذباء » وتجسمت فى شخص رجلين اثنين هما « أبو زيد » ويمثل الفريق الأول ، و « دياب » ويمثل الفريق الثانى . وتفسير ذلك أن الأمير دياب قتل أخوين للأميرين حسن وأبى زيد . وانتهت الوقائع بخضوع دياب . ونشر السلام ألويته إلى حين .

وينبغى أن نذكر هنا أن هذه الحلقة تميط اللثام عن تطوّر الجماعات وكيف يتصل بعضها ببعض وكيف يعمل هذا الاتصال على الحد من العصبيات القديمة دون أن يقضى عليها . كما أن الصهر والزواج هو الوسيلة إلى إحداث الحلف والاندماج ، فقد أصهر الهلالية عن طريق أبى زيد إلى بنى الزحلان ، وأصهروا عن طريق الحسن إلى بنى رياح ، كما أن القبيلة حاولت أن ترفع من قدر نفسها بالاصهار إلى الهواشم الأشراف من ناحية ، وإلى ملوك اليمن من ناحية أخرى .

الجيل الثانى

رأينا بوادر هذا الجيل فى عرضنا المجمل لسابقه ، فثمة حلقة اتصال بين كل جيل والذى يليه ، كما أن عوامل الاتساع القبلى أو الحلف أو الاتحاد إذا شئت ، لم تكتمل إلا بظهور هذا الجيل الثانى الذى يتجسم فى « الحسن بن سرحان » و « ابى زيد ابن رزق » و « دياب بن غانم » يضاف اليهم عنصر رابع يتمثل فى القاضى بدير أو « الفوايد » وهو دون العناصر الثلاثة الأولى . وكلهم من هلال . وقد أخذوا يعيشون فى نجد العلية أو العريضة — كما أسموها أو سميت على ألسنتهم — تحركهم عصبية عامة تقوى وتشتد اذا تعرضت الجماعة الكبيرة لعدو مشترك أو نزلت بها جائحة ماحقة . وعصبية خاصة تستشرى كلما اطمأنوا الى الخير . وأهم حادثة تعرض لها هذا الجيل ، أو تعرض لها بنو هلال فى أجيالهم جميعا ، هى اضطرارهم الى النقلة الجماعية من نجد ، بل من جزيرة العرب كلها واتجاههم ناحية الغرب . وكان الباعث

عليها هو الباعث للأعراب على كل هجرة تشبهها وهى «الجدب» . وقد أضفت السيرة على نجد ما يضفى على الأوطان يكره أهلوها على الارتحال عنها من الخصب والخضرة والنعيم.

وتمهد السيرة لهذه التغريبة بمقدمة تعرف بالريادة [1] ، ومعناها كشف الطريق والتعرف الى الغاية . وقد انتدب لها ثلاثة من الفتيان الأوائل فى الجماعة ، كما يقال فى العرف الفنى الحديث ، هم مرعى ويحيى ويونس . ونحن نفضل أن نعرفهم بأمهاتهم للخلاف القائم بين النسخ المختلفة فى آبائهم ، فرواية تذهب الى أنهم أبناء حسن أو أن اثنين منهما ابناه ، ورواية تزعم أن أحدهم ابنه فقط وأن الاثنين الآخرين ابنا أختيه . ومهما يكن من شىء ، فمرعى بن نافلة ، ويحيى بن عمره ، ويونس بن سروه ينتزعهم فارس القبيلة أبو زيد . ويبلغ من الاحتفال بهذه الحادثة أن سجلتها الجماعة وأرخت لها عام ٤٦٠ هـ . وليس من غرضنا هنا أن نحقق هذا التاريخ . وكان عمل هؤلاء الرواد أدنى الى التجسس ، فتنكروا فى زى الشعراء الجوالين . ونحن نستخلص من الحوادث الكثيرة المتشابكة المعالم الطريق الذى سلكوه ، فقد توجهوا الى مكة ثم ساروا عبر الفرات الى العراق ، وعرجوا على بلاد الشام فمروا بحلب وحماه وطرابلس والقدس وغزه ، ومنها الى العريش فبلبيس فمصر فالصعيد وانتهى بهم المطاف الى تونس . وكانوا فى كل مرحلة ينزلون فيها يدرسون المسالح والحصون والطرق والمنافذ ويسبرون غور قدرتها على الدفاع ، الى ما خبروه بأنفسهم من الأحلاف والخصوم بالنسبة لبنى هلال . ولكنهم وقعوا جميعا فى قبضة صاحب تونس ولم يستطع الافلات إلا أبو زيد الذى أكمل دراسة بلاد الغرب ثم عاد أدراجه الى القبيلة فى خمسين يوما بالسير الحثيث غير المتوقف ليجلب فدية الأسرى كما توهم صاحب تونس ، وليطلب الى القبيلة التغريب لفك الاسرى واستيطان بلاد المغرب كما كان مقرراً من قبل .

(١) من الرود وهو التماس النجعة . لسان العرب ج ٤ ص ١٦٩

وأخذت الجماعة كلها تستعد لهذه الغزوة الكبيرة التي لم تقم بمثلها من قبل وآثر رجالها لانها أن يستقدموا « نور بارق ، الجازية » وكانت قد تزوجت من شكر ابن أبي الفتوح الهاشمي صاحب مكة ، وأنجبت له ولدا اسمه محمد . واحتالوا حتى فرقوا بين الزوجين على كره منهما . وكان ذلك لاستنفار الرجال واستنهاض الهمم عند التقاء الجموع . ثم تحركت العشائر والبطون ، وكان ترتيب الركب كما يلي : أبو زيد الذي راد الطريق في المقدمة ومعه رجاله من آل جعفر والزحلان ، ويليه كبير أمرائهم الحسن بن سرحان الملقب بالسلطان ومعه رجاله من بني دريد ، والى جانبه بدير القاضي ومعه رجاله من الفوايد ، وخلفهما دياب بن غانم على رأس بني زغبة ، وفي خاتمة الركب زيدان بن غانم وأخو دياب على رأس الجمال يحمي الشيوخ والاطفال والنساء والاموال . وكان عدد المقاتلة فيما تزعم السيرة « أربع تسعينات ألوف » لكل أمير واحد من هؤلاء الاربعة .

وساروا في الطريق المرسومة في الريادة والتقوا أول أمرهم بصاحب حزوة والنير واسمه الدبيسي بن مزيد فغلبوه على أمره وعبروا الفرات ووصلوا الى العراق فرحب بهم صاحبه عامر بن الضرغام الخفاجي وأصر على ملازمتهم ولم يلتفت الى توسلات أهل بيته بالبقاء ثم حاربوا العجم (أو الاعجام) كما تسميهم السيرة وكانوا سبعة ملوك نخص منهم بالذكر « المغل » أما سائر الاسماء ، فعربية لاشك فيها . وأهم ما وقع لهم في هذه الحرب أسر « مارية » ابنة القاضي بدير واسترجاعها . وما كادوا يواصلون رحلتهم حتى حاربوا التركمان وكان يحكمها ملك يلقب بالغضبان فقضوا عليه وتحولوا الى حلب . واختلفت الروايات في أميرها ، فقول يذهب الى أنه يهودي يدعى « برجيس » يعتمد في حكم العرب على الخزاعي ورجاله من خزاعة ، وقول آخر يذهب الى أن الخزاعي وزيره . وقول ثالث يقسم المدينة قسمين : أحدهما لليهود وعلى رأسه البرجيس ، والآخر للعرب وعلى رأسه الخزاعي . فانتصر الهلالية على

الفريقين جميعاً وجدوا فى السير فمروا بحماة وحمص وبعلبك ، وغلبوا على دمشق وعرجوا على بيت المقدس وزاروا المسجد الأقصى وقبة الصخرة ثم تركوها الى غزة وألزموا صاحبها الجركسى بأن يفتدى نفسه بالمال، واتجهوا بعدذلك الى العريش فقتلوا أميرها البردويل ولم يكن مسلما . ودخلوا أرض مصر وضربوا خيامهم فى الخوف الشرقى فكانت مضارب أمرائهم فى بلبيس ، وامتدت منازلهم حتى شملت الصالحية والقرين وما حولها ، وتريثوا أمداً لان عزيز مصر يكتب الكتائب لملاقاتهم من دمياط الى هوارة الجيزة ، فاحتالوا حتى فروا منه واتخذوا طريقهم الى صعيد مصر وكان يحكمه الماضى بن مقرب . ولم تنس السيرة أن تذكر لنا أنه من أصل عربى وأنه كان فى نجد قبل أن يستقر به المقام فى مصر . ولكنها لم تذكر على التحقيق أنه من ولد هلال . وكان من الطبيعى أن يلقى الهلالية بالاكرام المتوقع من عربى مثله . ولم تكتف السيرة بهذه الأصرة اذ جعلته يصهر الى القوم ويتزوج من أشهر نسائهم « الجازية » ولما لم يستطع أن يستبقيها معه عند رحيل أهلها سمح لها أن تصحبهم لتتابع مهمتها فى استنهاض الرجال وتشجيع الفرسان وسار وإياهم مرحلة من الطريق ثم عاد الى إمارته .

وقبل أن ننتقل بالحوادث إلى بلاد الغرب نلاحظ أن السيرة كثيراً ما تصف أعداء الهلالية الذين لقوهم فى الطريق ، بأنهم من حمير ، كما أنها أوجدت علاقة تستحق الانتباه بين صاحب العريش وقبيلة سنبس ، وهم من طىّ ، فذكرت أن هذا الامير غير المسلم سبى ابنة شيخ القبيلة فلما قتله الهلالية خلعوها على ابن أخته ، دون أن يجدوا غضاضة فى تزويج عربية مسلمة إلى رجل من الكفار ، ودون أن يعالجوا الموقف بإسلام الأمير الجديد . ولم تتغير طريقتهم فى الانتصار على خصومهم ، فقد كانوا ينزلون بجوار المدينة أو الامارة فيطلب إليهم صاحبها العشور فيستمهلوه أو يصانعوه ثم يأخذوا فى التغلب عليه بالقتال أو بالحيلة أو بهما معاً .

وبدأت التعبئة إلى تونس بتعديل يسير فى ترتيب الركب ، نشير إليه لما فيه من معنى خاص ، فقد أوردت السيرة أن أمراء الهلالية تناقشوا فيما ينبغى عليهم أن يفعلوه فاستقر رأيهم على الاحتفاظ بمؤخرتهم وفيها أنعامهم وأموالهم وظعائن نسائهم وأولادهم ، وأرادوا أن يعهدوا بها إلى قوم منهم ، فأشارت عليهم الجازية ، وكثيراً ما كانت تشير ، بأن يكلوا هذه المهمة إلى دياب متعللة بأن حسن أمير القوم أجمعين ، فلا ينبغى له أن يتأخر ، وأن أبا زيد فارسهم الذى لا يمكن أن يستغنى عنه . وفهم دياب أنهم يبعدونه عن الهلالية ولكنه لم ير مناصاً من الموافقة وهو كاره . فنزل ومعه رجاله من بنى زغبة بواد يقال له وادى الغبان يرعى فيه « البوش » واعتزل الغارة إلى حين .

وبلغ الهلالية هدفهم الذى يقصدون ، وهو تونس الخضراء ، وكان ملكها — فيما تزعم السيرة — يدعى «خليفة الزناتى» ويكنى أبا سعدى . ولم تكن مملكته كالممالك التى مروا بها . فقد كان فارساً مقداماً ، وكانت المدينة حصينة منيعة ، وكان يأتمر بأمره أقيال ذوو بأس شديد . والتقى بنو هلال بزناته وكانت مقتلة عظيمة مات فيها عدد كبير من فرسان الطرفين ، وكادت الدائرة تدور على العرب ، ذلك أن خليفة قتل عدداً من صناديدهم ، نذكر منهم على الخفاجى الذى صحبهم على كره من أهله ، وزيدان بن غانم أخا دياب . واستمرت الوقائع سجالا ، والفرسان يسقطون زرافات ووحداناً ، وناشت السيوف فتياناً من ولد أبى زيد ودياب ، وغبر عما حتى إذا ضج الهلالية ورأوا أن الأمر يكاد يفلت من أيديهم ، وهم الذين قطعوا هذا الطريق المخوف على طوله ، ولقوا المكاره على كثرتها لكى يبلغوا هذا الموضع الخصيب ، استغاثوا بدياب فتأبى عليهم أول الأمر ثم استجاب لهم . فقتل خليفة الزناتى وفتح تونس وفك الأسرى الثلاثة مرعى ويحيى ويونس . وتحدثنا السيرة أنه جلس على عرشها

ولبس تاجها وعاق رمحه على بابها وأمر العرب أن يمروا تحته إشارة إلى تملكه عليهم . وثار به بنو هلال وكادوا يقتلونه .

وتابع العرب فتح بلاد المغارب فتوجه أبو زيد فى ناحية ودياب فى ناحية أخرى . فغلبا على القواعد والأمصار ودخلا قابس والقلعة وسرت والقيروان ومراكش وزواوه وتوزر وطنجة بل والأندلس ، دون أن تشير السيرة أهى من بلاد الغرب أم هى من بلاد أخرى منفصلة عنها . وتذكر السيرة من ملوك هذه القلاع حموداً وحماداً ، ومن الأقوام مغواره . وقسمت البلاد فيما بينهم فأخذ الحسن القيروان ودياب تونس ، وأبو زيد الأندلس .

ولسنا نستطيع أن نغفل العصبية الخاصة التى بدأت تحرك رأسها بعد أن تم الغلب لهؤلاء الهلالية ، فقد تجمعت هذه العصبية كما تجمعت قبل ذلك فى شخص الحسن الدريدى وفى شخص دياب الرياحى وكان أبو زيد هو همزة الوصل بينهما يحد من تحيف أحدهما على الآخر ويصلح ذات بينهما ، وإن كان من حزب الحسن . وقد صورت السيرة الأمير دياب فى صورة الجبار الطاغية الذى أراد إبنة الزناتى لنفسه ولم يأبه لما كان بينها وبين أسيرها من صلات . ومازال بها يراودها عن نفسها فتأبى عليه حتى قتلها . وأحرق مزارع بنى هلال وبساتينهم وأوغر صدور رعيته كما أحنق أحلافه . وما زالت هذه العصبية بالرجلين حتى استدرج الحسن دياباً وألقى به فى غياهب السجن . فلما احتيل لخروجه انتقم لنفسه بأن قتل الحسن وفر مغاضباً إلى الحبشة . ولكن العصبية لم تمت بل ظلت حية تتمثل فى أبى زيد وفى دياب . وقد استتب الأمر للأول يحكم بلاد المغارب بأسرها تقريباً ثم عاد دياب أو أعيد ، وطالب بحقه فى الملك فرفض أبو زيد ، وما زال دياب ينافسه حتى استدرجه وقتله كما قتل الجازية وتملك على البلاد يستبد بها وحده ، ودانت له

قبائل دريد وبنو جعفر والزحلان وغيرها من بطون الهلالية إلى جانب قومه زغبة ورياح .

الجيل الثالث

يعرف هذا الجيل « بالأيتام » اشارة الى ما فعله دياب الطاغية فى آبائهم من قتل، وهو يقوم كله على محاولة الأخذ بالثأر منه . ويبدأ بوصف ما مر على بنى هلال من السنين العجاف فلم يكتف دياب بطاعتهم ، ولكنه أمعن فى اذلالهم فمنع عنهم خيرات البلاد التى ملكوها بسيوفهم واستاق أنعامهم وأموالهم وأخذ يعمل السيف فى رقاب بنيهم خشية أن يثبوا على الانتقام منه . وظلوا على ذلك أمدا تحدده السيرة بسبع سنين ثم أخذوا ينتقلون فى جماعات قليلة الى مملكة عدوهم القديم الزناتى ، وكانت قد انكمشت بعد أن خرجت عن يده الحواضر والقلاع وأصبحت محددة برقعة معينة تعرف « بوادى بلاقع » ويعرف ملكها « بالخلاف الزناتى » وعاش فى كنف هذا الملك أبناء الجيل السابق نخص بالذكر منهم ، يربقع بن الحسن ابن سرحان وصالح بن أبى زيد بن رزق . وتشرد الآخرون وأمهاتهم فى طول البلاد وعرضها فذهب هلال بن رزق بن أبى زيد بن رزق الى عمه زيدان فى العدوة الشرقية من نيل مصر مع بنى جعفر والزحلان الذين لم يغربوا مع اخوانهم فى الجيل الماضى . وعاش جماعة من أبناء أبى زيد وغيره فى أقصى الغرب أى فى الأندلس . وأقام على بن رزق بن أبى زيد بن رزق فى موضع ويقال له « البرينجة » .

وأخذت الحوادث تعيد نفسها وتقمص دياب روح خليفة الزناتى القديم يجتمع عليه أعداؤه فى كل مكان . وشرع زيدان يجمع الأعراب من الشام ومن الحجاز ، متوسلا فى ذلك بمحمد بن شكر الهاشمى من الجازية ولبى هؤلاء الأعراب النداء

واجتمعوا الى زيدان فى صعيد مصر ثم زحفوا الى برقة فملكوها وتابعوا السير الى طرابلس وفى الوقت نفسه سار على بن رزق ، وهو المعروف بالأمير أبى الهيجات إلى أرض تونس . وكذلك شرق العرب الذين كانوا يقيمون فى الأندلس وأحاط الجميع بتونس حتى سدوا عليها المنافذ ثم اقتحموا قلعتها وأسروا دياب وقتلوه .

ويجدر بنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن الأمير عليا أبا الهيجات كان قد بسط سلطانه قبل ذلك على ما جاوره من المدن والربوع واتخذ لنفسه شارة معينة يتعارف عليها أتباعه ، وهى اطراح « شال العمامة » والتدثر بالحرام والبرنس » وأن الأعراب جميعا دانوا بطاعته واتخذوا شعاره فى جماعته ، من هلال ومن رياح . قبل أن يدخل تونس وبعد أن دخلها ، يستوى فى ذلك أكابر القوم وأصاغرهم . وعرف رجاله منذ ذلك الحين « بأولاد على » ولكن السيرة تذهب إلى أن هؤلاء ليسوا أولاده من صلبه ، فعبارة « أولاد » غير عبارة « بنى » فى الدلالة على الأنساب .

وقسمت بلاد المغارب مرة أخرى — فى زعم السيرة — فتنازل الهلالية عن تونس للخلاف بن الخليفة الزناتى وبايع الهلالية جميعاً بريقع بن الحسن بن سرحان بالامارة عليهم كأبيه وأصبح أبناء أبى زيد وزراءه وأصحاب مشورته على رئاستهم لبنى جعفر والزحلان كما أصبح أبناء بدير بن فايد فى مكان أبيهم يقضون بين الناس . ولم تنس السيرة « عليا وأولاده » فلم تمنحه إمارة أو فيئاً وإنما ذكرت أنه استأذن من لهم الصدارة من الهلالية كآبائهم فى الانصراف إلى شأنه بعد أن أتم مهمته ، وأضافت إلى ذلك أن « أولاده » انتشروا على حواف الصحراء من بلاد الحبشة إلى اقصى الغرب وهم يدورون فى المشاتى والمصايف بين مصر ومراكش . واتفق العرب بعد ذلك على أن يكون الخراج مناصفة بين بريقع بن الحسن بن سرحان ، وبين أبى الهيجات على بن رزق بن أبى زيد ، على أن يعود هذا كله إلى الأول بعد وفاة الثانى .

وثمة وحدة لم تحتفل بها جميع النسخ والروايات ، تذهب إلى أن بريقع الممثل لبنى هلال ، لم يعدل فى حكمه وأنه تحيف رعيته وأسرف فى الانتقام من خصومه زغبة ورياح . فاجتمعت كلمة هؤلاء الخصوم حول نصر الدين بن دياب الرياحى وما زال يستنفر قبيله حتى استجابوا ، فهجم بهم على بريقع وظهر عليه وأطاح به وبأمارته وفتك بالهلالية من دريد وجعفر والزحلان وغيرهم . ودخلت بلاد المغارب جميعاً فى طاعته .

وليس يفوتنا أن نشير إلى أن كل عشيرة قد استقرت فى مكان من بلاد المغرب أو عادت إلى موطنها الأول ، فان زيدان بن أبى زيد بن رزق قفل راجعاً إلى الزيادية فى العدوة الشرقية من صعيد مصر . وكذلك محمد بن شكر الشريف الهاشمى إلى مكة . وعاد الذين جاءوا من الأندلس إلى قاعدتهم فيه ، وهم كما أسلفنا من أبناء أبى زيد وعاد بعض بنى عقيل إلى النجود بجزيرة العرب .

وبهذا الجيل الثالث تنتهى سيرة بنى هلال . وحسبنا فى هذا التلخيص الطائر أننا احتفلنا بالمحور الذى تدور عليه حياتهم ، وهو الأنساب ، فما يستطيع باحث أن يتبين خصائصهم الجماعية والإسمية إلا على هديها . فهى التى ترسم عصبياتهم وتفسر حلفهم وخصومتهم وتبرر حقودهم وثاراتهم ، وتعلل ظعنهم وإقامتهم ، وتقص أجيالهم وفعالهم . وبغير ذلك لا يستطاع التأريخ لهم أو لسيرتهم . أما التفاصيل فسوف نثبتها أو نشير اليها فى مواضعها من الدراسة التحليلية .

الباب الثانى

محاولات فى تأريخ السيرة الهلالية

أول ما ينبغى أن تتجه اليه الجهود عند دراسة هذه السيرة الطويلة المتشعبة هو محاولة التعرف على الزمن الذى أنشئت فيه ، ولن يكون ذلك سهلا ، لأن الأدب الشعبي بصفة عامة لم يلق من اهتمام المتعلمين ما يلقاه الأدب الرسمى . ولم يؤثر عن هذه السيرة وأضرابها من المخطوطات ، مايهدينا بطريق مباشر أو غير مباشر إلى الأفراد الذين تعاونوا على انشائها ولن يجد المتشبع لحرفة النقلة والمنشدين ، حرصاً ما على تسجيل الأسماء التى برز أصحابها فى الرواية . ومن ثم كانت مهمة الباحث وعرة المسالك تعتمد على متفرقات فى نصوص السيرة من ناحية ، ومرويات حول هذه النصوص من ناحية أخرى .

وكان الباحثون الغربيون أكثر منا احتفالا بالأدب الشعبى وقد رأينا ما بذلوه فى إماطة اللثام عن الطبقات المختلفة التى يتألف منها كتاب ألف ليلة وليلة ، ورد كل طبقة الى البيئة المادية والاجتماعية التى أنتجتها ، مع تتبع الخصائص البيانية لها . وعمدوا إلى جانب هذا بجمع الأمثال السائرة على ألسنة العوام غير المتعلمين فى أقطار العالم العربى بل الإسلامى ، وترجموا إلى لغاتهم كثيراً من آثار الآداب الشعبية العربية ، وقدموا لها بالأبحاث الوصفية والتحليلية ، وتعدوا هذا كله إلى جمع المخطوطات الخاصة بفروع هذا الأدب ، وإذا وجدوا فيها نقصاً أكملوه بتسجيل الروايات الشفوية من نقلته والحافظين له ، وحرصوا على المطبوعات حرصهم

على الذخائر، ورتبوها فى خزائن كتبهم العامة بعد أن وضعوا لها الفهارس التى تفصل الكلام عنها وعن محتوياتها . بيد أننا نلاحظ بصفة عامة أن اهتمام هؤلاء الباحثين بسيرة بنى هلال كان أقل من اهتمامهم بألف ليلة وليلة مثلا . وان الذين تصدوا لدراستها كانوا أحد رجلين ، دارس لها على أنها صورة من الشعب الذى يحكمه أو تحكمه دولته ، أو متوسل بها إلى إماطة اللثام عن بعض الحقائق اللغوية الخاصة فى اقليم من الأقاليم .

وكان أول مستشرق احتفل بهذه السيرة وحاول أن يتعرض لها بالدراسة العلمية هو رينيه باسيه M. Réne Basset فقد كتب عام ١٨٨٥ فصلا ضافيا تحدث فيه عن هذه السيرة[١] . ولكن الناظر فى هذا الفصل لا يسعه إلا أن يعترف بأن مؤلفه وهو ما نعلم « بحرا فى شئون المغرب وأهله ، لم يكتبه عن تخصص كامل ولا عن باعث شخصى . فقد نشره بمناسبة صدور ترجمة فرنسية لاحدى القصص العربية . ويبدأ بالتعريف بهذه القصة وتتبع محتوياتها ومحاولة تحليلها وأورد الأخبار التى ذكرها ابن خلدون ويظن أنها متصلة بها . ثم يعرج بعد ذلك على بنى هلال وأبى زيد معتمدا على طبعات القاهرة[٢] ويورد بيانا موجزا بوقائعها . ويقف وقفة خاصة عند الكتاب الرابع وهو الذى يتحدث عن الشريف الهاشمى شكر وصاحبته الجازية محاولا استخلاص شىء من الحقيقة التاريخية لهذه الحوادث . ويستأنس بالترجمة الفرنسية التى نشر فصله من أجلها ، ويوازن بينها وبين أضرابها الهلالية من ناحية ، ويقرب بين موضوعها ووقائع التاريخ من ناحية أخرى . ومهما يكن من شىء فحسبه أنه نبه الأذهان المفكرة إلى سيرة بنى هلال ووجوب الاهتمام بها والعمل على بحثها والافادة منها فى الدراسات التاريخية اللغوية ولا يزال لفصله هذا المزية التى ينفرد بها وهى ريادة طريق كان إلى عهده مجهولا .

---

(١) Bull,decorr. africe فى Un eposide d'une Chanson de geste Arabe ص ١٣٦ — ١٤٨

(٢) ادوارد فنديك . اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٢٨٩

وأصدر بعد ذلك بحوالى عشر سنين أى عام ١٨٩٦م المستشرق الألمانى الذائع الصيت «و. أهلوارد» فهرسه القيم الجامع للمخطوطات العربية بمكتبة برلين وان المرء ليذهل عند ما يرى هذه العناية الفائقة بمخطوطات الأدب الشعبى بعامة ، وسيرة بنى هلال بخاصة . فقد استغرقت مخطوطات هذه السيرة الجانب الأكبر من الكتاب التاسع عشر الخاص بالقصص الشعرية الطويلة — الملاحم إذا شئت [١] — وفيه وصف مستفيض لها جميعا وإن كانت تبلغ أربعة وسبعين ومائة مخطوط [٢] ، مع ايراد كثير من محتوياتها وذكر بعض الأعلام المتصلة بها . ولكن على الرغم من هذه الفراسة المنقطعة النظير فى تمييز المخطوطات فان النقول التى اقتطفها أهلوارد من بعض أجزاء السيرة ودواوينها لا تدل على شىء له قيمته فى تأريخها وهى وان جمعت جميع الأحداث والوقائع التى نراها موزعة على المطبوعات المختلفة إلا أن العبارات التى اطلعنا عليها تشير اشارة واضحة إلى أن معظمها قد دون فى مصر وفى القاهرة فى عهد جد متأخر . ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن هذه المخطوطات تحتاج إلى الاطلاع المباشر والدراسة المقارنة الجدية . ويبقى بعد ذلك لاهلوارد فضل جمعها وتبويبها واعطاء فكرة مقاربة عنها وعن موضوعاتها .

وجاء بعد ذلك بعامين ، أى عام ١٨٩٨ م المستشرق الالمانى أيضاً مارتن هارتمان M. Martin Hartmann فنشر بحثاً مستفيضاً عنوانه «سيرة بنى هلال [٣]» . وقد ذكر هذا المستشرق وهو بصدد لبحثه أنه إنما أراد بيان الخطوط البارزة التى وصلت الينا عن هذا الأدب الشعبى المتسع الجنبات ، وابراز المصادر الخاصة به

---

(١) Die Handschriften-Versyeichnisse der Koniglichen Bibliothek برلين ١٨٩٦ Die Poesie e XIX Buch ص ١٥٥ — ٤٦٢

(٢) من رقم ٩١٨٨ إلى ٩٣٦١

(٣) فى Die Beni Hilâl-Yeschichten, in zeitschrift für afrikanische und ocanische Sprachen der deutschen Kolonien P- 289—315 Berlin 1898.

مع الاشارة إلى قيمتها وعرض الأجزاء الهامة من هذه القصص الطويلة المتحدثة عن البطولة والحب . وأقام بحثه هذا على دعامتين الأولى ، الطبعات التى صدرت إلى عهده عن سيرة بنى هلال والثانية الأوصاف المبينة للمحتويات التى أوردها (أهلوارد) فى فهرسه الجامع لمخطوطات برلين . ولم يفته أن يوازن بين المخطوطات والمطبوعات ولكنه لم ينته من هذه الموازنة إلى شىء له خطر فى تأريخ هذه السيرة . ويمتاز هذا البحث إلى جانب ما قدمنا بالبراعة فى عرض الوقائع الهامة التى تعرضت لها السيرة وبخاصة فيما يتصل بالهجرة والانتقال الجماعى . ثم ختمه بنظرة تأريخية عامة إلى هذه القبائل استمدها من ابن الأثير فحسب . واحتفل هارتمان أيما احتفال بالحلقة الثالثة (فى تقسيم الغربيين) أو بأهم حادثة تعرض لها الجيل الثانى (فى تقسيمنا نحن) وهى المرحلة بشعبتيها الريادة والتغريبة و التى أسماها (Wanderung nach dem Westlande) أو (Westzung) وهى التى تضمها طبعة بيروت بين سنتى ١٨٩٢ — ١٨٩٨ وهى تتألف من أجزاء صغيرة متعددة أو دواوين كما هو الاصطلاح الشائع بين النقلة والمنشدين . ووقوع الباحث على هذه الطبعة جعل بحثه يمتاز على أبحاث اللذين تقدماه لأنها صدرت بعد مقال الأول وعند فراغ الثانى من فهرسه الجامع . وليس ينبغى أن تفوتنا الاشارة إلى أن هذه الطبعة لا تكاد تختلف عن الطبعة السابقة التى نشرت بين عامى ١٨٨٠ ، ١٨٨٣ ببيروت [١] . وتبدو المماثلة من السطر الأول فقد ورد عنوان كل منهما بهذه الصيغة « رحلة بنى هلال إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة وما جرى لهم فى تلك البلاد من الحوادث اللطيفة الطريفة والحروب الهائلة المخيفة » . وثمة طبعة بيروتية ثالثة لم يشر اليها هارتمان ظهرت عام ١٨٩٠ [٢] . ولا يؤثر عدم اطلاعه عليها فى بحثه لأنها مطابقة

(١) فنديك . المصدر السابق ، ظهرت هذه الطبعة وعليها اسم الناشر ابراهيم سارو وقد طبعت بالمطبعة العمومية .

(٢) وهى التى نشرت على نفقة رجل يدعى خليل الخورى .

لطبعة ١٨٩٢ — ١٨٩٨ التى أشرنا اليها . وكذلك لم يشر المستشرق الألمانى إلى طبعة أخرى غفل من التاريخ يبدأ جزؤها الأول ب « قصة جابر وجبير أجداد بنى هلال وهم أولاد المنذر بن هلال بن عامر بن أوس بن تغلب (هكذا) على التمام والكمال والحمد لله على كل حال » وجزؤها الأخير بـ « قصة الأمير بدران ابن أخت الأمير أبو زيد وما جرى له لأجل بنت عمه حسن مع روق الشريف فى الأوطان وخلاف ذلك بالتمام والكمال» . ونحن نتبين قدر استطاعتنا من سياق هذا البحث ، وما فيه من محاولة التنظيم ، أن تغريبة بنى هلال يمكن أن تندرج فى مجموعتين كبيرتين . تضم الأولى اثنى عشر جزءاً لكل منها عنوان قائم برأسه وترقيم مستقل لصفحاته . وتبدأ هذه المجموعة ببسط الباعث للقبائل الهلالية على الهجرة من نجد والتوجه شطر المغرب وتنتهى بمقتل خليفة الزناتى وتغلب العرب على المغرب ودخول عاصمته تونس . وتضم المجموعة الثانية ثلاثة أجزاء تتحدث عن الوقائع التى تعرض لها العرب بعد ذلك والحروب التى اشتجرت بين قبائلهم الثلاث . دريد وعلى رأسها حسن بن سرحان ، وزحلان وعلى رأسها أبو زيد ، وزغبة وعلى رأسها دياب بن غانم . وتنتهى بمقتل هؤلاء الرؤساء الثلاثة وكثير من أبنائهم وذراريهم مع استثناء نصر ابن دياب الذى يغلب على من بقى من العرب الهلالية وينفرد بحكم بلاد المغارب ولولا هذا الفصل ولولا فهرس أهلوارد ما استطاع باحث أن يرتب هذه الوحدات المتفرقة والمتشابكة ترتيباً يتفق مع سياق الأحداث والوقائع ويكسبها صفة السياق الزمنى الواجب فى كل قصص تاريخى وأدبى على السواء .

أما الفرد بل A. Bel فقد أفرد لسيرة بنى هلال كتابا قائما برأسه عنوانه « الجازية [1] » أصدره فى باريس عام ١٩٠٣ وحاول فيه أن يفيد من أبحاث الذين تقدموه فعرض لها فى شىء من الايجاز ولم يصل فى تأريخها إلى نتيجة ما ، ذلك لأنه

(1) Chanson Arabe : La Djāzya

انما اهتم بنص خاص من نصوص هذه السيرة .. نص مغربي تلقفه من ألسنة المغاربة وحاول جهده أن يوازن بين هذا النص وبين اللهجات الزناتية ، أو لهجة بني شجران بنوع أخص . وهذا الكتاب ، وان كان يمتاز بالملاحظة الخاصة التي اكتسبها من دراساته المستفيضة للهجات السكان في شمالي افريقية ومن تخصصه في تلمسان وأريافها وما جاورها ومن رحلاته المتكررة لتلك الربوع وخلطته المستمرة بالأهلين ، إلا أنه قصر بحثه على الجانب اللساني دون سواه فأورد النص الذي عثر عليه بالحروف العربية وأخذ يلاحظ ما بينه وبين اللهجات المغربية القديمة من وجوه التشابه والاختلاف . ثم أورد ترجمة فرنسية لهذا النص ذيلها بتعليقات شتى . وليس يهمنا من كتابه هذا إلا صفحاته الأولى التي قدم بها لدراسة نصه ، والتي حاول فيها أن يعرض للحقائق التاريخية المتعلقة ببني هلال ، وهي الحقائق التي لا تخرج عما أورده ابن الأثير وابن خلدون ثم أنه عندما أشار إلى المخطوطات المختلفة والطبعات المتباينة، اكتفى بايراد بعض محتوياتها . وإذا كان لهذا الكتاب من قيمة ، وهو الذي احتفل به المستشرقون[1] ، فهي تسجيل صوره لجزء من أجزاء هذه السيرة كما تروى على ألسنة فريق بعينه من الناس وليس ثمة شك في أن البواعث التي دفعته إلى هذا الاهتمام لم تكن علمية خالصة كما هو واضح في عباراته نفسه .

وهكذا ترى أن دائرة البحث يجب أن تتجاوز المخطوطات والمطبوعات[2] إلى ميدان ، أفسح ذلك لأن أدبا جماعيا شعبيا كسيرة بني هلال يختلف في طبيعته عن

---

(١) مارتن هارتمان . مادة « أبو زيد » دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة العربية .

(٢) Catalogue of Arabic books in the Biritish Museum: Ellis ج ١ ص ٦٣٨ وما بعدها ، V. Chauvin : Bibliographie des ouvrages Arabes ج ٣ ص ١٢٨ وما بعدها ؛ فهرس الكتب العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية ج ٤ ص ١١ و ١٥ و ٣٦ و ٣٩ و ٤٣ و ٤٦ و ٨٣ و ٨٩ و ٩٢ و ١٠٣ ، فنديك . اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص ٢٨٩ ، يوسف الياس سركيس معجم المطبوعات العربية والمعربة إلى نهاية عام ١٣٣٩ هـ — ١٩١٩م . القاهرة ١٩٢٨م ص ١٠١٥

الأنواع الأدبية الفردية التى أثرت عن اللسان الفصيح المعتمد معظمه على التدوين فاكتسب بذلك خصائص معينة فى صورته ومنهجه ، لا يمكن أن تلتمس فى مدوناته وأن يتوسل بها فى فهم تأريخه بل إن الباحثين ليذسحب اهتمامهم من تحليل النصوص وما حول النصوص إلى تحليل الأوراق والمداد . أما الأدب الفصيح المجهور أو الخطابى ، فقد التزم فى تنقله بين الأفراد والأجيال إلى جانب تدوينه قواعد على شىء من الثبات ، فالرواية الأدبية تحتفل بالمتن والاسناد معا ، ولعلها أفادت من قوانين الرواية الدينية والتاريخية ، وما اصطنعته من ضوابط . ومن العبث أن ننظر إلى هذه السيرة على أنها أثر مستكمل الصورة منذ وجوده ، أو على أن ما أصابها من التغير بعد فترة معينة أو بيئة معينة ، انما هو زيادة يجب فصلها ، أو أن نتوسل بها إلى فهم شىء آخر . والصحيح أن ندرسها لذاتها على أنها كائن لا يزال ينبض بالحياة ونحن نقصد بطبيعة الحال السيرة التى استقرت فى مصر منذ أمد بعيد وقد دعانا هذا إلى أن نستعين بأحد المنشدين البارزين المختصين بسيرة بنى هلال [١] دون غيرها . ففى هذا الميدان تخصص كما فى سائر الحرف والصناعات . ولم نكتف بأن نثقف منه طرائق الانشاد ، ولكنا سمعنا منه معظم هذه السيرة كما يحفظها ويرويها . وتبينا معه دواوينها الأساسية وسياقها فى الانشاد من حيث الأهمية والتتابع الزمنى معا . وعلى الرغم من أن هذه الصناعة كانت إلى أوائل هذا القرن تنتظمها نقابة لها شيخ يرأسها ويشرف على مصالحها ومصالح أفرادها ويشجع على رواجها فاننا لم نستطع أن نحصل من المنشد إلا على ثلاثة أجيال من الرواة ، فقد ذكر أنه أخذ عن عمه ، ولا يزال موجودا [٢] ، وان عمه أخذ عن جده عن أبيه وهكذا . . مما يدل على أن الصناعة كانت وراثية تعتمد على الذاكرة وتنتقل عن طريق الرواية الشفوية لا التدريس .

---

(١) واسمه السيد فرج السيد .

(٢) واسمه محمد السيد فرج .

ولم يرو لنا منشدنا أن أحدا من الذين يعرفهم توسل فى حفظه أو انشاده بمخطوط أو مطبوع [١] .

ومن الطبيعى أن نتحول إلى ميدان الاتصال بين الآداب الشرقية والغربية ، أو بتعبير أدق ، بين الأدب العربى وأدب الأمم اللاتينية ، ولن يفيدنا فى هذا الموضوع الأدب الفصيح هنا وهناك ، لأنهما يقومان على عزلة متعسفة ، وينتهجان طرائق تقليدية متوارثة ، أما الادب الشعبى ففيه من الحرية والمرونة والقدرة على الأخذ والعطاء ما يجعله يتحدى الخلاف الدينى والخصام الحربى والمغايرة العنصرية . ومن الملاحظ الواضحة أن تيار الأدب الشعبى العربى كان قوى التأثير فى أقاليم البحر الأبيض المتوسط من ايطاليا واسبانيا وجنوبى فرنسا بحيث أدخل عنصراً جديداً يستطيع أن يقف إلى جانب العنصر اللاتينى ، بل يغلبه فى بعض الأحيان : على أن تتبع هذا التأثير فى العصور الوسطى جد متعذر لغموض اتجاهاته ومراحله ، وانقسم الباحثون فى هذه المسألة فريقين ، أحدهما ينكر هذا التأثير انكارا تاما أو يكاد ، وأغلب الظن أنه يخضع فى ذلك لبواعث دينية أو سياسية أو حضرية ، مثال ذلك المستشرق دوزى Dozy صاحب العبارة المشهورة « نحن نعد هذه المسألة ضرباً من العبث ولا نريد أن تكون منذ الآن موضوع جدل ومناقشة وإن كنا مقتنعين بأن الخلاف عليها سيستمر أمداً ليس بالقصير [٢] والثانى يبالغ فى رد كل المظاهر أو حلها فى الحياة العقلية والشعورية لتلك الأمم إلى أصول عربية ، كالذى يقوم به ريبرا Ribera [٣] فهو يرد — مثلا — كلمة تروبادور التى تدل على الشاعر الجوال المماثل لشاعرنا الشعبى إلى مادة عربية هى « طرب » مع العلم بأن هذه الكلمة

---

(١) ميدان مشاهداتنا ومشاهدات غيرنا تدل على أن بعض هؤلاء المنشدين يستعينون بنسخ من هذه السيرة ويرجعون اليها فى بعض الأحيان .

(٢) 3 rol ed (188) Vo II aapendix L XiX nete 2 : Recherches sur l'histoire de l'Espagne

(٣) فى Historia de la mùsica

يمكن أن نرد إلى مادة أخرى هى : Trouver ولكن الطريف أن معنى هذه الكلمة الأخيرة وهو الوجد يتجاوز مجرد « العثور » إلى الوجدان ، وفيه الطرب والهيام وكان الأولى أن يكون اثبات الاستعارة على أساس المدلول المعنوى لا على أساس الكلمة الملفوظة . ومهما يكن من شىء فان جميع القرائن المستخلصة من الأدبين الشعبين العربى والغربى الجنوبى تحمل على الاعتقاد بأن الدراسة الحديثة المنزهة ستميط اللثام عن مقدار ما أخذه كل فريق من الآخر فى الصور والموضوعات ونستطيع أن نحدد تاريخ هذا الاتصال بصفة عامة ببداية ظهور الآداب الوطنية اللاتينية كالأدب البروفنسى Provance فقد ظهر فى هذه البقعة من جنوب فرنسا عند نهاية القرن الحادى عشر الميلادى شعر جديد فى صورته وموضوعه وأخيلته والمثل الاجتماعية التى يعبر عنها . ولم يكن فى التراث الشعرى الفرنسى القديم ما يماثله أو يمهد له . وليس أقرب إلى العقل من القول بأن الشعراء البروفنسيين قد تأثروا الشعر الأندلسى المغربى بعامة والشعبى منه بخاصة . وإذا نحن انتخبنا من هذا الأدب الفرنسى القومى لذلك العهد أهم ملحمة فيه وهى الملحمة المعروفة « بأغنية رولان » التى تتحدث عن البطولة والحب وما اليهما من سمات الفروسية الرومانية والتى تعود أقدم نسخها ، وهى المحفوظة بالمكتبة البودلية ، إلى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) فاننا نلمس روحاً جديدة دخلت فى الشعر الغربى تقترب إلى حد ليس باليسير من روح الشعر العربى الشعبى ، كما أن الواقعة الهامة التى تدور عليها هذه الملحمة والتى تبنى عليها الحركة الدرامية ، وهى الدسيسة التى رجعت بالبطل فى كتائب شارلمان إلى مؤخرتها ، تماثل ما وقع لدياب بن غانم فى الجيل الثانى من سيرة بنى هلال عند محاربة خليفة الزناتى . فاذا أضفنا إلى هذا كله ما يشيع فى هذه الأغنية من عواطف الحب المخالف لمثل الكنيسة وما يبدو فى أوزانها من تأثر الأوزان الأندلسية المغربية الشعبية فاننا لا نشك فى أن اتصالا قد حدث

بين الأدبين الشعبين وإن هذا الاتصال قد أحدث آثاره الواضحة فيهما . أما قصة « أوكاسان (القاسم) ونيكوليت » Aucassin et Nicolette فقد طبعت فى عنوانها ومنهجها بالميسم العربى . وتبقى بعد ذلك ناحية لها خطرها وهى تأثر الأدب العربى الشعبى بأدب الأمم اللاتينية . فنحن لا نريد أن نقصر كلامنا على أن أدبنا العربى قد ساط تلك الآداب بدمائه ، إذ ليس من شك فى أن عامل التأثير كان متبادلا بين الأدبين . وكل من له المامة بتاريخ العصور الوسطى ، يعلم أن عرب المغرب والأندلس كانوا يخالطون جيرانهم وأعداءهم فى آن واحد وأنهم ثقفوا من هذه المخلطة بعض لهجاتهم ، فقد أثر أنهم عرفوا لغة الجلالقه [1] . وأن اللهجات العربية الشعبية استعارت من اللهجات اللاتينية العبارات والأخيلة . ودخل فيها كثير من قصص القوم وأغانيهم . وتأثر الشعر العربى المغربى الشعر الاسبانى فى المادة والقالب جميعاً . ونحن نستخلص من هذا أولا . أن الأدب الشعبى فى كل من البيئتين العربية والأوربية كان قد ظهر حوالى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى (السابع الهجرى) واتخذ مكانه إلى جانب الأدب الفصيح حتى اعترف به المتعلمون . ثانياً : أن شطراً لا يمكن تحديد مقداره من سيرة بنى هلال لم يكن موجوداً فحسب بل كان ذا تأثير مباشر أو غير مباشر فى الآداب الأوروبية .

ولم يعثر أحد من الباحثين فى الشئون الشرقية على ترجمة لاتينية أو غير لاتينية لسيرة بنى هلال وكان قصاراهم أن يستشهدوا بها فى بيان مدى التأثر والتأثير فى الآداب الأوربية ولم يكن الباعث على ذلك طول هذه السيرة لأن الراغب فى النقل إلى لغته كان يستطيع أن يقبس حلقة أو يقتطع جزءا وهى كما رأينا أقسام مستقلة وأن تداخل بعضها فى بعض . ومعظم الترجمات متأخرة وهى لجوانب يسيرة منها

---

(١) نسبة إلى جاليسيا أو غاليسيا وهى اقليم قديم فى الشمال الغربى من شبه جزيرة ايبريا عند خليج بسكاى .

وكان الباعث عليها الدرس لا التذوق والتوسل بها إلى فهم عادات الشعوب العربية فى شمالى افريقية بخاصة . مثال ذلك ما قام به ادوارد لين Edward W. Lane [١] فقد ترجم إلى اللغة الانجليزية شعراً ، فقرات يسيرة ليدلل بها على القالب الذى صبت فيه سيرة بنى هلال . وما صنعه لارجو V. Largeau [٢] من الاحتفال بالمرويات القصصية والاسطورية فى الصحراء الافريقية وجلها يتعلق ببنى هلال . وما عمد اليه جوان M. L. Guin [٣] فى تتبع بعض القصص المغربية وفيها من غير شك سمة هلالية وإن اختلفت عن السيرة التى بين أيدينا فى الاعلام . وما أخذ نفسه به عالم مغربى اسمه محمد ابن رحال [٤] من جمع ما يحفظه بنو أزناس من حروب بنى هلال والبربر وترجمتها إلى اللغة الفرنسية كما نقل إلى الفرنسية بل A. Bel [٥] النص الذى سبق أن أشرنا اليه بعد أن تلقاه من جبال بنى شكران . وتنفرد ترجمة ولفرد بلنت W. Blunt لذلك الجزء المتصل بتعرف أبى زيد إلى زوجته عالية بسمة لا تشاركها فيها سائر الترجمات وهى أن صاحبها قد أقدم عليها عن إعجاب خالص وتذوق فنى لا تشوبه شائبة من سياسة أو علم ، فآثرها مكايل J. W. Mackail بالذكر [٦] وهو يتحدث عن الشعر من منبر جامعة اكسفورد معترفا بأن بلنت إنما هدته شاعريته إلى انتخاب هذا الجزء والتأثر به عند نقله إلى الشعر الانجليزى وغنى عن البيان أن هذه النقول وأمثالها لم يكن لها من التأثير فى الآداب الأوربية الرومانية ما كان لترجمات ألف ليله وليله التى شرع الأوربيون فيها منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادى .

---

(١) Mannars and Customs of the Madern Egyptians لندن عام ١٨٧١ ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها .

(٢) Flore sahrienne, histories et légende Traduites de l'arabe جنيف ج ٨ ، ١٨٧٩

(٣) Legende arabe وهران ١٨٨٤

(٤) فى مجلة الجمعية الجغرافية بوهران عام ١٨٨٩ المجلد التاسع جزء ٤٠

(٥) La Djâyia

(٦) Lectures on Poetry لندن ١٩١٤

وأهم معلم فى طريق كل من يتصدى لتأريخ سيرة بنى هلال وأقدمه فى الوقت نفسه هو ابن خلدون فى مقدمته وتاريخه على السواء . ونحن نرى قبل أن نناقش نصوصه أن نعرض لنظريته الأدبية أو النظرية التى أوردها نقلا عن غيره . وهى تتلخص فى أن اللغات ملكات تحصل بالتعود المستفاد من التكرار . وأن لغة الجيل العربى المتفرق فى البوادى أيام ابن خلدون كانت مغايرة للغة مصر القديمة التى نزل بها القرآن الكريم وأثر عنها الحديث الشريف وقد أفرد فصلا قائماً برأسه يبين فيه أن ملكة هذا اللسان البدوى غير صناعة العربية المضرية ومستغنية عنها فى التعليم وأكد فى غير موضع من مقدمته أن البيان لا صلة له بالنحو أو الاعراب وأن هذه اللغة العربية البدوية يمكن أن نستخلص لها قواعد وقوانين إذا وجد الباعث على ذلك . ولكن التبريز والاجادة فى المنظوم والمنثور لا شأن لهما البتة بمثل هذه القواعد والقوانين . ولم يقصر ابن خلدون ملاحظته على البوادى ، بل تعداها إلى الحواضر والامصار وبين فى وضوح أن الناس فيها يتعلمون لغة ويعيشون بلغة أخرى . تعتمد الأولى على اللسان المضرى الفصيح الذى لا يستغنى عنه متعلم فى عصور يغلب عليها النصر الدينى . وتساير الثانية مقتضيات الحياة اليومية المتنوعة المتجددة فى المنازل والأسواق . وهى مشوبة بعجمة جعلتها أبعد عن اللسان المضرى الفصيح من لغة البدو وختم ابن خلدون كلامه المردد على سبيل التأكيد بنماذج من أدب البدو والعوام (١) .

وصح ما توقعناه من ابن خلدون الذى رأى أعقاب هؤلاء الهلالية وآثار حروبهم وشاهد كثيراً من خلافاتهم مع البربر وتعرف إلى بعض أشياخهم وأمرائهم فى عصره وتتبع بيوتاتهم وأنسابهم فى ربوع افريقية . ولكن اهتمامه ينحصر فى واقعة واحدة من وقائع السيرة الكثيرة المتشابكة ، وهى الخاصة بشكر الشريف والجازية قال « . . . وهؤلاء الهلاليين فى الحكاية حين دخولهم إلى افريقية طارق

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٦ وما بعدها فقرة ٤٠ وما بعدها .

فى الخبر يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز، ويسمونه شكر بن أبى الفتوح ، وأنه أصهر إلى الحسن بن سرحان فى أخته الجازية ، فأنكحه إياها وولدت منه ولداً واسمه محمد وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة، وأجمعوا الرحلة عن نجد إلى افريقية وتحيلوا عليه فى استرجاع الجازية فطلبته فى زيارة أبويها فأزارها إياهم وخرج بها إلى حللهم فارتحلوا بها وكتموا رحلتها عنه وموهوا عليه بأنهم يباكرون للصيد والقنص ويروحون إلى بيوتهم بعد بنائها فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم ففارقوه فرجع إلى مكانه من مكة وبين جوانحه من حبها داء دخيل وانها بعد ذلك كانت به مثل كلفه إلى أن ماتت من حبه »[١] .

ولم يحاول ابن خلدون تحليل هذه الرواية أو الموازنة بينها وبين غيرها ، مما يتصل بها حتى يستخلص وجه الصواب فيها . وقد عدنا إلى تاريخ مكة الحرام فى تلك الفترة فوجدنا أن أسرة من نسل الحسن بن على بن أبى طالب غلبت عليها تعرف بالأسرة الموسوية ، وأن أولهم جعفر بن محمد بن الحسين وقيل ابن الحسين بن محمد الثائر ابن مومبى الثانى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط بن على بن أبى طالب[٢] . ويدل قيام هذه الدولة واستمرارها على استمتاعها بقدر من الاستقلال الدينى والسياسى على السواء . وبلغ من استشعارها العزة أن قطعت الخطبة للخليفة الفاطمى قبيل عام ٣٩٥ هـ . ولولا ما ضربه الفاطميون من الحصار الاقتصادى على الحجاز لتمادت فى ذلك[٣] ولما جاء الشريف الثالث

(١) ج ٦ ص ١٨

(٢) السيد أحمد بن زينى دحلان . خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام . طبعة القاهرة ١٣٠٥ هـ ص ١٦

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩١

من حكام هذه الدولة نادى بنفسه خليفة عام ٤١٤ هـ وحياه الناس بأمير المؤمنين [١].

أما شكر وهو الذى يعنينا فقد تولى إمارة مكة من عام ٤٣٢ — ٤٥٣ وهو شكر الملقب بتاج المعالى واسمه محمد ويكنى أبا عبد الله وأثر عنه أنه جمع فى ملكه بين مكة والمدينة بعد أن غلب على بنى الحسين ولم ينجب ذكوراً يتولى أحدهم الإمارة بعده . وقيل إن الذى خلفه عبده له [٢] . ويستخلص من هذا أن شكراً لم ينجب ابناً اسمه محمد من الجارية أو من غيرها، ومن المجمع عليه أن الفرع الموسوى ينتهى به . وقد عين صاحب اليمن المعروف بالصليحى على مكة عام ٤٥٥ هـ . أبا هاشم محمد وبه تبدأ دولة الأشراف الهواشم . وواضح أنه ليس ابن شكر ولكنه يتصل به فى شجرة النسب فحسب [٣] . وصحيح أن ولاية شكر استغرقت فترة من أهم فترات التغريبة ولكننا لا نستطيع أن نجزم بصحة التفصيلات التى أوردتها سيرة بنى هلال والتى سلم بها ابن خلدون وقد رأينا مغايرتها لما يذكره المؤرخون فى أكثر من موضع . ومع هذا فلا يفقد نص ابن خلدون أهميته القصوى لأنه يدل بجلاء على أن سيرة بنى هلال كانت حية نامية من الناحية الأدبية على الأقل فى عهد هذا المؤرخ الكبير .

وهناك نص آخر لابن خلدون لا يقل عن سابقه أهمية لأنه يعدد الرجالات الأعلام الذين اشتركوا فى الغزوة الافريقية قال : « . . . وكان لهؤلاء العرب لعهد دخولهم افريقية رجالات مذكورون وكان من أشرفهم حسن بن سرحان وأخوه بدر وفضل بن ناهض وينسبون هؤلاء فى دريد بن الأثبج وماضى بن مغرب مثنوية بن قره وسلامة بن رزق فى بنى كثير من بطون كرمة بن الأثبج وشاقه بن الأحيمر وأخوه صلصيل ونسبوهم فى بنى عطية من كرمة ودياب بن غانم وينسبونه فى بنى نور

(١) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٣٢ ، زيني دحلان . المصدر السابق .

(٢) زيني دحلان . المصدر السابق .

(٣) ابن الاثير ج ٩ ص ٤٢٢ ، ج ١٠ ص ١٩ ، ٣٨ ، زيني دحلان المصدر السابق ص ١٨

وموسى بن يحيي وينسبونه فى مرداس رباح لا مرداس سليم فاحذر من الغلط فى هذا وهو من بنى صغير بطن مرداس رباح ورديد بن زيدان وينسبونه فى الضحاك وملیحان ابن عباس وينسبونه فى حمير وزيد المجاج بن فاضل ويزعمون أنه مات بالحجاز قبيل دخولهم إلى افريقية وفارس بن أبى الغيث وعامر أخوه والفضل بن أبى على ونسبهم أهل الأخبار فى مرداس . . . [1] » وقد استقى ابن خلدون هذه الأسماء منسوبة إلى قبائلها من أعقاب الهلالية أنفسهم وحاول كما ترى أن يزيل بعض الالتباس الذى ربما علق بها . ومن العجيب أن المستشرق الفرد بل Bel يزعم أن هذه الأسماء لم تكن للأمراء أصحاب الصدارة فى قبائلهم ، وإنما كانت لرجالات فى المرتبة الثانية فى المجتمع القبلى [2] . وليس هذا برأى لأنه لو كان هناك أمراء فوق هؤلاء لحفظتهم ذاكرة أعقابهم ولاستطاع ابن خلدون أن ينقلها كما نقل أسماء هؤلاء . وخير من هذا أن يقال إن هذه الأسماء أصابها التحريف قبل ابن خلدون فقد أخلت بفعل الزمن وأصابها التصحيف بعد ابن خلدون بفعل النقلة والنساخ . وإلى أن نهتدى إلى النسخ المضبوطة من تاريخ ابن خلدون والمصادر التى استقى منها فاننا لا نستطيع أن نتتبعها وأن نصوبها وأن نردها إلى مواضعها فى مجتمعها وعصرها . ولا يفوتنا أن نسجل أن الذاكرة الشعبية فى مصر وفى غير مصر استطاعت أن تحافظ على معظم هذه الأسماء كالحسن بن سرحان وسلامة بن رزق ، وهو بركات أو أبو زيد ، وماضى بن مقرب ، وهو الذى زعمت سيرة بنى هلال أنه تزوج الجازية بعد شكر ، ودياب بن غانم وزيد بن زيدان . وأورد ابن خلدون صاحب الريادة غير ما ذكرت السيرة وإن بقيت فيها ملامح منها فقال إنه زياد بن عامر ، وزياد قريبة من أبى زيد . ولسنا ندرى أعامر هذا أبوه على التحقيق؟ أم هو الجد الأعلى

---

(١) ج ٦ ص ١٦ طبعة بولاق ١٢٨٤

(٢) فى La Djazya ص ٣٥

الذى ينسب اليه فى مجموع القبائل الهلالية ، وكناه « أبا مخيبر » وعبارته توهم بأنها مشتقة من الخبر المتصل بالريادة وكشف الطريق . ولكن معظم نسخ السيرة والمنشد الذى اعتمدنا عليه يجعل هذه الكنية « أبا مخيمر » وما نستطيع أن نصحح إحداهما من الأخرى .

ولم ينس ابن خلدون أن يذكرنا : « أن الأشعار المتصلة بهؤلاء القوم والمروية على ألسنتهم أدخل فى الأدب الشعبي وأنها إذا كانت محكمة البناء متفقة الاطراف ففيها المطبوع والمتنحل والمصنوع لم يفقد فيها من البلاغة شيء وإنما . . . (فى النسخة بياض ولكن يفهم من سياق العبارة أنه إنما يشير إلى الاعراب) فقط ولا مدخل له فى البلاغة كما قررناه لك فى الكتاب الأول (يقصد المقدمة) إلا أن الخاصة من أهل العلم بالمدن يزهدون فى روايتها ويستفكفون عنها لما فيها من خطأ فى الاعراب ويحسبون أن الاعراب هو أصل البلاغة وليس كذلك ، وفى هذه الأشعار كثيراً أدخلته وفقدت فيه صحة الرواية فلذلك لا يوثق به ولو صحت روايته لكانت فيه شواهد بأيامهم ووقائعهم مع ذنائه وحروبهم وضبط لأسماء رجالاتهم وكثير من أحوالهم ولكنا لا نثق بروايتها وربما يشعر البصير بالبلاغة بالمصنوع منها ويتهمه وهذا قصارى الامر فيه . . . . »[1] .

وعلى هذا الأساس يورد ابن خلدون شواهد من الشعر المتصل بسيرة بنى هلال فى ختام مقدمته وتعد هذه المقطوعات أول خيط جدى يتصل بسيرة بنى هلال من الناحية الأدبية والفنية ، فالقطعة الأولى أرسلت على لسان الشريف بن هاشم يتحسر على فراق الجازية ، والثانية تهكم بخليفة الزناتى اليفرنى ، أجرى على لسان ابنته سعدى ، والثالثة على لسان شكر الشريف أيضاً يعاتب فيها ماضى بن مضرب ، والرابعة فى ذكر رحلتهم إلى الغرب وغلبهم زناتة .

(١) ج ٦ ص ١٨ طبعة بولاق ١٢٨٤

ومما لاشك فيه أن هذه المقطوعات لم تصل الينا كما سمعها ابن خلدون وما تعرضت له من التحريف أكثر مما تعرضت له أسماء الأعلام وأخبار الوقائع لغرابة نظمها ومبناها . و بلغ من احتفال المستشرقين [1] بالمقطوعة الأولى أن رسموها بالحروف اللاتينية ليتبينوا موسيقاها . أما نحن فحسبنا الآن دلالتها على أن سيرة بنى هلال كانت تنبض بالحياة أيام ابن خلدون وتزخر بكثير من الأحداث التى يشتمل عليها نسيجها المتأخر .

ومن اليسير أن نتبين من هذا كله أن سيرة بنى هلال مرت بطورين ، أولهما : الطور الغنائى الخالص وكان قبل القرن السادس الهجرى ، ذلك أن شواهد ابن خلدون تنطق بأن السيرة كانت فى أول أمرها عبارة عن قصائد غنائية توزعتها أجيال مختلفة و بيئات شتى بعيداً عن اللسان الفصيح وهى تشبه من هذه الناحية أغانى البطولة الغربية Chanson de geste التى كانت قبل أن تستقر على صورها المعروفة مقطوعات غنائية متفرقة . ثانيهما : الطور القصصى وقد بدت أماراته أيام ابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى ، تؤيد ذلك الشواهد التى أوردها فى مقدمته ، عن ماضى ابن مقرب وخليفة الزناتى ولم يحدث التحول طفرة وإنما حدث فى أناة و بطء ولا يمكن أن يقال إن فرداً معيناً أو أفراداً معينين قاموا بالعبء فيه . فسيرة بنى هلال كمثيلاتها « أغنية رولان » تعبير شعب عن مشاعره الجماعية . وليس يقدح فى ذلك ما نراه فى بعض النسخ من أسماء توصف بأنها قامت بتأليف السيرة أو إنشائها ، كلها أوجزء منها كنجد ابن هشام [2] أو حسن الخزرجى [3] لأن هذين الاسمين وأمثالها ،

(١) اعترف د . سلين باختلاف المخطوطات فى نص هذه المقطوعة ، ١٨٦٨ ص ٤٠٨ وما بعدها .

(٢) طبعة القاهرة . فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية لآخر ديسمبر سنة ١٩٢٨ ج ٤ ص ٤٣

(٣) كما ورد فى بعض طبعات القاهرة وهى مجهولة التاريخ .

أوجدهما الخلط بين الانشاء من ناحية و بين الرواية والنقل من ناحية أخرى ولاسبيل إلى تحقيقهما . ومثل السيرة فى ذلك مثل أغنية رولاند فان الاسم الذى وجد فى أقدم نسخها وهو تروليودس أو تيورلدو Trouliodos أو Theroulde [٣] يرجح أنه ناسخ لا مؤلف .

والخير كل الخير أن نفرد للموضوع على أساسه الأدبى باباً قائماً برأسه يضع السيرة فى مكانها الطبيعى من مختلف الأنواع الأدبية، فذلك أدخل فى منهجنا ، وأدنى إلى قصدنا ، وأجدى على البحث .

(١) The Book of the Epic: H, A . Guerber ص ٩٧

الباب الثالث

مكان السيرة من الأنواع الأدبية

لا بد لنا أن نتفق قبل أن نخط حرفاً واحداً فى هذا الباب على تحديد أهم مصطلحين فى الدراسة الأدبية وهما الشعر والنثر، وقد يبدو أن تفسيرهما من الوضوح بحيث لا يحتاجان إلى عناء فى التحديد . ولكن الأمر يبدو غير هذا عند تطبيقهما على سيرة بنى هلال . ونحن لا نلقى بالنا إلى الأنظار السطحية التى تذهب إلى أن هذه السيرة شعر ونثر معاً . وأن ازدواج هذين الضربين من ضروب التعبير سمة من سمات القصص العربى لأن مثل هذا النظر القصير لم يتعد أشياع خطأ فى التاريخ الأدبى وهو أن الشعر مقابل للنثر ، وأن أساس التفريق بينهما يقوم على أن أولهما التزم ترتيباً مردداً فى الحركات والسكنات وجرساً معيناً تنتهى اليه كل فقرة من فقراته . وثانيهما على نقيض ذلك مرسل فى كثير من التحرر يبعده من الانصباب فى قوالب بعينها والخضوع لأوزان فى الصوت لا يتعداها ، وهو إن خضع لشىء من هذا فتحلية غير أساسية يقوم بها وبدونها على السواء . وما نظن أننا فى حاجة إلى أن نقف طويلا عند تأثر مدلول هذين الاصطلاحين بالنظر الدينى الذى يرى أن « الشعر هو الكلام الموزون المقفى الذى قصد إلى وزنه وتقفيته قصداً أولياً [1] أى أن كل من يصدر عنه كلام فيه وزن وتقفية عفو الخاطر دون تعمد مقصود فليس بشاعر . وأن النثر هو كل كلام مجرد من الوزن والتقفية المتعمدة وأساس هذا التعريف لا يفرق بين صور الكلام من حيث اللفظ أو المعنى ، وإنما يعتمد على التعرف إلى نية

(١) محمد على التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ج ١ ص ٧٤٤

المتكلم عند إنشائه . ولن نكون أسعد حظاً إذا نحن توجهنا إلى الغربيين المحدثين فان تعاريفهم على كثرتها يمكن أن تندرج فى مجموعتين صدرت الأولى عن طائفة كابدت الانشاء الشعرى ورأت فيه انبعاثا حيوياً، وصدرت الأخرى عن مفلسفة يقيسون الفنون ، ومنها الشعر بمعايير المنطق ومقاييس العلم ويخضع أولئك وهؤلاء لآراء ثابتة يتعصبون لها وإن حملت فى أعطافها عناصر تدفع إلى الجدل والمناقشة . ولعل الباعث على كل هذا الخلاف هو اختلاف فى النظرة إلى الشعر فهو يرى من ناحية على أنه وظيفة أساسية من وظائف الحياة وجهد مبدع متكامل ، ويرى من ناحية أخرى على أنه عمل صناعى خارجى يقوم بحذق آلى خاص [١] . والمقابلة بين الشعر والنثر غير مضبوطة فالشاعر يمكن أن تلزمه صفة الشعر بلا نظم ، وكما أننا نستطيع أن نفرق فى لغتنا بين « الشعر والنظم » فان اللغات الأوربية تفرق كذلك بين poetry و Verse وقد احتجنا فى اصطلاحاتنا الحديثة إلى تسمية بعض ضروب القول « بالشعر المنثور » وهى ترجمة لكلمة prosaic poetry ولم نستعمل بعد « السجع المشعور » لعبارة poetic prose وهذا يدل على أن الفصل بين الشعر والنثر ليس تاما . والراجح أن هذه المقابلة التى لا تزال شائعة وموجودة فى كثير من فصول النقد الأدبى الحديث أوجدها عدم التدقيق فى استعمال الألفاظ والمصطلحات فاختلط الشعر بالنظم ولما كنا من القائلين بأن الأدب فى شعره ونثره إنما هو فن جميل يتوسل باللغة كما تتوسل الموسيقى بالجرس ، والرسم باللون ، فان جوهر الشعر فى نظرنا ليس هو الوزن ، وليس هو مجرد أصداء الانفعال فى العبارة ، وليس هو الذى يقصد إلى غاية خلقية أو نفعية . ونحن لا نوافق مكايل Mackail [٢] فى قوله إن الشعر هو اللغة النموذجية لأن ذلك أخذ بنظرية القالب أو المثال . والشعر فى نظرنا أقرب من هذا وأيسر ، أنه كسائر

(١) J. W. Mackail : المصدر المذكور ، لندن ١٩١٤ ص ٧

(٢) المصدر السابق ص ١٢

الفنون تعبير يجسم الشعور ويكسبه التخصص والانفراد ، ووسيلته القول أو العبارة الصائغة ، والموسيقى التى تصحبه ليست أصواتاً ذات أبعاد وأقيسة فحسب ، ولكنها أصوات تطابق فى درجاتها وأنواعها وتداخلها وافتراقها ، وانسيابها وتوقفها ، الشعور الذى تخصصه ولا تطابق غيره . وإن صبت فى قالب عام فان ذلك لا يمنعها فى الجزئيات والتفاصيل من هذه المطابقة الخاصة .

ووقع كثير من الباحثين فى الأدب العربى أو المتصدين لعوامل التأثر والتأثير بين الآداب العربية والأوربية فى خطأ دفع اليه التعميم فى الحكم وقياس أثر أدبى على أثر أدبى آخر فزعموا أن القصة العربية مقصورة على النثر وهم يقصدون بذلك القول غير الملتزم لوزن خاص أو قافية خاصة ، ولا أعتقد أننا محتاجون لبيان مجافاة هذا القول للصواب الى تصحيح التعريف . وقد تورط فى هذا الخطأ بوديلون Bodillon فى مقدمته النفيسة لقصة أوكاسان ونيكوليت . وهرز Hers فى دراسته لهذه القصه نفسها فزعم أن هناك فرقا يميزها عن القصص العربى ، هو أن سياق السرد فيها يستمر فى كل من الشعر والنثر على التعاقب دون تدخل أحدهما فى حين أن القصص العربى ، الأصل فيه النثر ولا يورد الشعر إلا لغرض غنائى أو تعليمى وهما يشرحان ما ورد فى النثر ولا يكملان السرد النثرى بحال من الأحوال . ومن اليسير عنده أن نحذف الشعر دون أن نفقد القصة شيئا ذا بال . وربما كان هذا القول صحيحاً على أثر أدبى كألف ليلة وليلة . وليس ينبغى أن يتخذ كتاب واحد أو نوع أدبى واحد أصلا فى القصص العربى بأسره ، وأعجب من هذه الأقوال ماصدر عن مستشرق معروف بدرايته الواسعة للأدب العربى هو نيكولسون Nichalson [1] فقد أورد فى كتابه الجامع عن تاريخ الأدب العربى هذه العبارة الغريبة « إن الأدب العربى لم ينتج ملحمة شعرية كبيرة ، وكل الذى انتجه قصص نثرية وهى وأن كانت ذات

(١) فى كتابه Literary History of the Arabs

طابع قريب من الملاحم فمن الأفضل أن تسمى قصصاً تاريخية » والتعميم فى هذه العبارة واضح وهو أدنى إلى إلقاء القول على عواهنه دون استشهاد يؤيده أو ينفيه ، ولا يعنينا من عبارته أن نضيف إلى الأدب العربى أو نحذف منه بعض الأنواع على أساس الكبر فى الأبعاد أو الدرجات، وانما الذى يعيينا حصره ، القصة العربية فى دائرة النثر . وربما كان له شيء من العذر لأن عنايته بالأنواع الأدبية الفصيحة لم تدع له مجالا للعكوف على غيرها . ولو أن هؤلاء الباحثين لم يأخذوا أنفسهم بالقصص المدون وحده وحاولوا دراسة القصص الشعبى فى عباراته الملفوظة واستأنسوا بالصناعات المصاحبة له كما يفعل كل من يتصدى لدراسة الأدب الدرامى لأدركوا خطأهم ولعرفوا أن الأدب العربى غير ما وصفوه . ولم يغفل ادوارد لين E. W. Lane [1] التفريق بين حرفتين متمايزتين فى الأدب الشعبى يعرف أصحاب الأولى « بالشعرا » أى الشعراء وأصحاب الثانية « بالمحدثين » أى المحدثين . وأهم ما يتخصص فيه الأولون سيرة بنى هلال . وهذا يدل على أن هناك ضربين من الأدب الشعبى قوام الأول الشعر ، والثانى النثر .

ودراستنا السابقة لسيرة الظاهر بيبرس والموازنة بينها وبين سيرة بنى هلال تجعل هذا التفريق أوضح وأظهر ، فان الشعر فى القصة الظاهرية لم يكن يقوم بوظيفة السرد أو القصص ، ولكنه كان يقوم بالأغراض الغنائية فى مواقف الحب والتوديع والمناجاة وما اليها ، وكان على ضروب مختلفة منها القصيدة الفصيحة أو المتفاصحة ومنها المقطوعة الزجلية والمواليا . وإذا التزم المحدث عرفا بذاته فى الانشاء فانه لا ينص فى الأغلب الأعم على اسم البطل الذى يروى الشعر على لسانه .

وكثيراً ما كنا نجد مقطوعة أو أبياناً تصدر به « قال الشاعر » ويكون ذلك استخلاصا لحكمة أو بكاء على الزمن أو ترصيعا لرواية . كما أن من الملاحظ الدقيقة

(١) المصدر المذكور لندن ١٨٧١ ص ١٠٣ ، ١١٤

أن النثر فى السيرة الظاهرية لا يبرأ من نظم وتقفية معاونة للمحدث على حفظها من ناحية وتزييناً لكلامه عند إلقائه والاستماع اليه من ناحية أخرى [1] . وهى من هذه الوجوه تغاير كتاب ألف ليلة وليلة وإن كانت هناك مشابهة ما فهى فى وظيفة الشعر لا فى مقداره . أما سيرة بنى هلال . فالى جانب تسمية منشدها بالشاعر فان الشعر فيها يستوعب جميع أحداثها مما يدل على أنه الأصل الذى تقوم به . يؤيد ذلك تصدير كل قطعة شعرية باسم بطل الحادثة وكأنما هو قائلها . مثال ذلك ما قيل على لسان أبى زيد بعد الريادة وقبل التغريبة :

يقول أبو زيد الهلالى سلامه ونيران قلبه زايدات لظاه
ألا ياهلال اليوم ياالعاص اصغوا لكلامى وافهموا معناه
ردت لكم وادى يا قوم ما أحنه بسلبكم وادى العريس ومياه

* * *

وما قيل على لسان بدر الهلالى وهو يستدرج الجازية لتترك زوجها شكر وتلحق بقومها فى رحلتهم :

يقول الفتى بدر هلالى وما نشد ونيران قلبه زايده فى جحيم
نعم أيها الطير الذى سكن العلا على شرف عالى وطيب نسيم

* * *

وقيل على لسان الجازية وهى تحتال لدخول تونس :

تقول جزات الناس أخت أبو على الأيام والدنيا علينا تدور
أروح إلى عند ابن درغام عاصر وآخد بنات كأنهن بدور
وندخل عليه بالكلام مع الحيل وننظر فى من لهم ومقصور

(١) كاتب هذه السطور . سيرة الظاهر بيبرس — رسالة جامعية لم تطبع — الفصل الخاص بأسلوب السيرة .

وهى ملاحظة سبقنا اليها ابن خلدون منذ أمد طويل ، [1] مما يدل على أن هذا العرف كان متبعاً قبل القرن الثامن الهجرى ، وهاك قوله وهو يتحدث عن الشعر البدوى عند العرب المستعجمة الذين عاصرهم وأغلبهم الهلالية . . وأكثر ابتدائهم فى قصائدهم باسم الشاعر . واستشهد على ذلك بمقطوعات منها ، بداية أولاها :

قال الشريف بن هاشم علي ... ترى كيدى حرس شكت من زفيرها
يعز للاعلام أين ما رأت خاطرى ... يرد أعلام البدو يلقى عصيرها
وماذا شكاة الروح مما طرأ لها ... عذاب ودائع تلف الله خبيرها

* * *

وليس النثر الذى نراه فى نسخ السيرة أو نسمعه من المنشد إلا ترديد للسرد الشعرى يشرحه ويوضحه . وتصديره بعبارة « قال الراوى » يثبت أن الشعر المنسوب إلى أصحابه المقول على ألسنتهم هو الأصل ، وأن النثر مجرد ذيل له مستقل عنه . وهذه العلاقة بين الشعر والنثر تنطوى على حقيقة تتصل بتطور السيرة . فاذا وجدنا بعض الأجزاء لا تستوعب أشعارها جميع أحداثها وتغفل أسماء قائليها ويكتفى النثر فيها الشعر أو يطغى عليه بحيث يصبح مدار الرد وحده أو يوضح على ألسنة القائلين وكأنه حديث مباشر ويتخلف الشعر عنه فلا يتعدى تجسيم الجزئيات أو توكيد بعض الوقائع دون بعض أو ترديد المشاعر الغنائية ، فان مثل هذه الأجزاء لا بد وأن تكون متأخرة فى الظهور عن غيرها ، أو لعلها أكثر تعرضاً من غيرها للحشو والتحريف . مثال ذلك ما نراه فى الديوان الخاص بالأمير على أبى الهيجات ، فان هذا الديوان يعتمد على الرواية النثرية وحدها ويقيس الشعر للتحلية ولا يكون ذلك إلا لماما . ومع أننا لم نجده فى معظم النسخ التى اطلعنا عليها أو على أوصافها ،

(١) المقدمة ص ٤٢٨ وما بعدها .

فاننا آثرناه بالذكر فى التلخيص ، لأن المنشد الذى استمعنا اليه يحفظه وإن لم يستطع الابانة عن السبب فى قلة الشعر فيه . ولولا عنصر الخطا بيات لظننا أنه إضافة قام بها صاحب تدوين . وليس من شك فى أن عدم التدقيق فى هذه الملاحظة هو الذى حدا بالباحثين إلى القول بأن الفن القصصى فى الأدب العربى قام بالنثر واستغل الشعر استغلالا ثانويا. وهم اذا أرادوا أن يمثلوا بضريب فى الأدب الغربى يتسم بالخصائص نفسها فانهم يضعون أصبعهم على قصة « أوكاسان ونيوكوليت » ولكن هذه القصة إن شابهت الف ليلة وليلة أو سيرة الظاهر بيبرس فى العلاقة بين النثر والشعر فانها لا يمكن أن توازن من هذه الناحية بسيرة بنى هلال التى بنيت على الشعر وأفادت من النثر إفادة عارضة [1] .

بيد أن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بأن النثر يقوم بوظيفة أخرى لها قيمتها فى القصة من حيث الشكل ، وهذه الوظيفة هى وصل القصائد الشعرية الطويلة والقصيرة فى سياق واحد . ولسنا نظن أن الباعث عليه هو قصور القصيدة الواحدة ذات القافية الخاصة والوزن الخاص عن تأدية مختلف الأغراض ، بحيث يتطلب ذلك تقسيم العمل الفنى كله الى وحدات تؤدى كل منها غرضا بذاته . ذلك لأن فى هذه السيرة التى بين أيدينا قصائد على شىء من الطول النسبى تتحدث عن عدة وقائع أو تشمل أكثر من غرض . ولكن الذى نعرفه هو أن هذه الظاهرة تتصل بتطور السيرة أكثر مما تصل بالصورة العامة وقد سبق أن قلنا إنها لم تنشأ دفعة واحدة على صورتها هذه ولكنها نشأت قصائد ومقطعات متفرقة — كما سنفصل ذلك بعد — أخذت تنمو على الأيام ويتداخل بعضها فى بعض وبقيت فى آخر الأمر حلقات تحتاج الى شىء من الإحكام ، فكان النثر وليس

---

(١) Mackail المصدر السابق ص ١٣٢

معنى هذا أن النثر أوجدته وظيفة السرد أو القصص لأن الشعر قام ، ولا يزال يقوم به . وهو فى تضاعيف السيرة الى جانب ما فيه من شرح وتفسير أقرب الأشياء الى مقدمات المناظر والمشاهد فى الأدب الدرامى . ينبه الى التغير فى الحركة من فرد الى فرد أو من مكان الى مكان . ويبسط القول فيما يخفى من الصور المتراكبة فى الشعر . والنثر كله يبدأ بعد عبارة « قال الراوى » بصيغة تفيد التعقيب على الشعر الذى سبقه . وترسم المنظر الذى يليه وتهيىء للشعر الذى سينشد فيه . مثال ذلك ما ورد فى أحد دواوين التغريبة عند محاربة الهلالية للاعجام قبل بلوغهم مصر .

قال الراوى : لما سمع التيمورلنك هذا الكلام غضب غضباً شديداً وصار الضياء فى عينيه ظلام وكان له وزير من جملة وزرائه اسمه اسكندر فلما تكامل الديوان أشار يسأل الملك عن غضبه .

قال الفتى المسمى الوزير اسكندر والدمع فوق الخدود تحدرا

. . . . الخ

وما ورد فى الموضع نفسه :

قال الراوى : فلما فرغ الوزير من كلامه والملك التيمورلنك يسمع نظامه فقال اسمع ياوزير وأنتم يا أكابر دولتنا وأشار يقول :

يقول التمرلنك أبو شميلة أنا قاهر الأبطال والفرسان

. . . . الخ

وقد تعمدنا اختيار هذه الشواهد من ديوان الأعجام لنبين أن الشعر يرسل على ألسنة غير العرب فى السيرة وأن النثر إنما يقوم بوظيفة الوصل والانتقال من مشهد

إلى مشهد . ولو قيض لهذه السيرة أن تصطنع الحركة المسرحية بدلا من وقوفها على صورتها القصصية هذه لانزوى هذا النثر واتخذ مكانه فى النسخ المدونة وحدها إرشاداً للقائمين على المسرح وراء الستار أو مساعدة للقارئين على تخيل مختلف المناظر والأشخاص .

ومن العجيب أن مؤرخى الآداب العربية ونقادها يكادون يجمعون على أن الشعر العربى لم ينتج الملحمة .

وقد كان الأجدى على البحث أن ينصرف إلى بيان العلاقة بين الآثار الفنية وبيئاتها . ولا غناء فى القول بأن هذه البيئة أوذلك الاقليم لم ينتج أثراً بعينه من الآثار الفنية ومعرفتنا عن بداوة العرب ناقصة إلى حد كبير وهى لا يمكن أن تساعدنا على إدراك عبقريتهم الفنية إدراكا كاملا . وما أثر عن الجاهلية يشوبه النقص من جانب ويتعرض للتجريح بالشك والانتحال من جانب آخر . ولسنا نوافق مكايل Mackail [1] ، ومن لف لفه من أن طبيعة الحياة الجاهلية لم تكن تتلاءم وإنشاء الملحمة وأن الدولة الاسلامية بنظامها الدينى الصارم المجافى للفنون وغلبة العناصر الأعجمية عليها لم تكن الملحمة توافق مزاجها وكأنما ينبغى على الأقوام فى مختلف البيئات أن يتشابهوا فى الطبائع الشاعرة تشابههم فى استقامة الجسم والقسمات بوجه عام . والدارسون للفنون ينفرون أشد النفور من القول بالتكرار الذى يشبه التناسخ والذى تعبر عنه هذه الكلمة المأثورة « إن التاريخ يعيد نفسه » كما أن من الأخطاء التى ينزلق اليها بعض النقاد ، التوسع أو التضييق فى مدلولات المصطلحات الفنية ، ذلك لأن الاصطلاح فى الفن ييسر التصنيف وهو تعميم لا شك فيه ولكنه لا يشخص أثراً فنياً معيناً بحيث تبدو خصائصه التى ينفرد بها عن سائر الآثار . ومن

---

(١) مكايل ، المصدر السابق ص ١٢٤

ثم كان لزاما علينا ألا نستعمل « الغنائية » و « القصصية » وما اليهما إلا لبيان ما نلقى من الفوارق الشعرية فى الصورة والوظيفة .

ولا مجال لانكار « الغنائية » فى سيرة بنى هلال وقد سبق أن رأينا أن كل مقطوعة من مقطوعاتها تصدر باسم قائلها حقيقة أو تخييلا . وأن كثيرا من الأغراض الشعرية التى طرقتها لا تخرج عن هذا النطاق الغنائى من توديع ولد أو فراق عزيز أو بكاء طلل . ومن مدح كريم الى رثاء فقيد . وما الى هذا من وصف حالات النفس الواحدة فى انبساطها وانقباضها على السواء ، يعين على هذا كله إيراد الوقائع بأكملها فى مجال السير الخاصة بأبطالها ، بل انها لما استكملت هيئتها و بلغت النضج وانقسمت على نفسها كما تنقسم الخلية الحية . كان أساس هذا الانقسام تفرد كل بطل بالأحداث الخاصة به كلها أو بعضها . وأهم خصيصتين غنائيتين فى موضوعها هما الحب والحرب .

والحب فى سيرة بنى هلال يختلف اختلافا بينا عما نجده فى الآداب الفصيحة ، فنحن نلمح فى الشعر الجاهلى المدروس المنمق العبارة المضبوط الوزن احتفاله بالحب كما لم يحتفل بموضوع آخر . فقد رسم السوابق التى صارت بعده تقليدا شعريا مرعيا وهى ابتداء كل قصيدة بالبكاء لفراق حبيب تثير الأطلال الشاخصة ذكراه . ونرى أن الشعر فى الحواضر الاسلامية رقت ديباجته وتنوعت أسباب الحب فيه واستقل ببعض المقطوعات الخاصة به . وأخذ يميل شيئاً فشيئاً بفعل الحضارة الى التمويه والافادة من الدعابة والظرف حينا ، والاسراف فى المجون المفحش حينا آخر . أما طبقات الشعب فآثرت التعبير عن الحب بقصص يغلب عليه الخيال ويدور حول عاشق يفنى حياته فى حب أفلاطونى .

بيد أن السيرة الهلالية لم تفعل شيئاً من هذا وإنما عرضت الحب عرضاً واقعياً

فى غير إسفاف فانصرفت عن الشذوذ انصرافا كاملا ولم تنكره أو تستهجنه كما ينكره الرأى العام أو يستهجنه . ولم تجعل من موضوعه وسيلة الى الوعظ الخلقى . ولكنها سكتت عنه لا لأنها لم تعرفه ، ولكن لأنها لم تمل إليه ، وزهدت فى حب العذارى ، يصعب أو يسهل الحصول عليهن ورغبت فى ضرب آخر من الحب المكتهل هو حب الرجل زوجته وعطفه عليها وخوفه من فراقها والبكاء عند توديعها والاحتفاظ بذكراها والفرح بلقائها . ولم تجعله وقفا على الجانب المذكر وحده ، بل رسمته مشتركا متبادلا وأجرت على لسان الزوجة مثلما أجرت على لسان الزوج مختلف العواطف المحزونة أو المبتهجة . وهذه الخصلة إن دلت على سمة فنية فهى تتضمن فى الوقت نفسه مثلا اجتماعياً مخالفاً لما نراه فى الشعر الفصيح . وما عليك إلا أن تتصفح سيرة بنى هلال فى أى جزء من أجزائها أو ديوان من دواوينها لكى تجد الشواهد الناطقة بهذا الرأى ، فليست الجازية وشكر وحدهما هما اللذان يفصحان عن هذا الضرب من الحب . ولكن الزوجات والأزواج فى السيرة كلها سواء فيه .

وفى السيرة إلى جانب هذه مقطعات غرامية ، العنصر الموسيقى فيها أظهر منه فى غيرها مما يدل على أنها تصلح للغناء ولا بد أنها كانت كذلك أول نشأتها ثم حوّرت بحيث تلائم الصورة العامة للسيرة . وهى لا تتحدث عن عاطفة الحب الزوجى التى مرت بنا حديثا مباشراً أو غير مباشر ولا تكون من أحد الزوجين إلى الآخر مشاهدة أو مناجاة . ولكنها تتصل بهما وبعاطفتهما الزوجية . وإليك هذا المثل بين بدر الهلالى وبواب قصر شكر صاحب مكة وزوج الجازية .

قال بدر :

أنا أول كلامى مدحت النهامى تظله الغمامى له الحجج راح
يا رب ازوره واتملا بنوره واشاهد قبوره وتلك النواح

واقول يا حبيبي يا مسكي وطيبي مدحك من نصيبي مسامع صباح
لك يوم الهجيري غمامه تسيري وانت البشيري بكل الصلاح
من بعد المدايح وقول الملايح عاد الدمع سايح من جفني القراح
يا بواب افتح لي الباب المصفح من دخله يربح وينال الفلاح
أيا بلت عمي زاد فيها غمي وسقمي وهمي أورث لي نواح
وابوها قال حين تجيب المال تحظى بالجمال وست الملاح
قالوا لي اللزايم عليك يا بن هاشم يعطيك الغنايم كثير السماح
واناجيت قاصده يجبرني يرفده وربي يديم سعده ويبقى في انشراح
وانا فقير احتاج مال كتير وربي قدير يعطيه السماح
ويديم نصره ويعلي لقدره ويجبر بخاطره بكل الصلاح
لانه أمير ويرضى الفقير وخيره كتير أمير البطاح
واختم كلامي بمدح التهامي تظله الغمامي نبي الفلاح

* * *

فأجابه البواب :

أنا أول كلامي ، مدحت التهامي تظله الغمامي ، هو سيد الملاح
يقول البواب ، أنا افتح الباب ادخل لاتهاب ، يا ابن السماح
ادخل لا تبالي ، حالك مثل حالي يا ما قد جرى لي ، في حب الملاح
واقولك صواب ، ادخل للرحاب يا ما القلب داب ، وكثرت نواح
كم بيضه كريمة ، عيشتها غنيمة والسمرة اللئيمة ، تورث الافتضاح
راعيها مذمم ، ساكن في جهنم وصل البيض مغنم ، مسامع صياح
أنا كنت بواب ، في قصر بعتاب شاهد الاحباب ، ملوك النواح
لكن أبعدوني ، عنهم وحجبوني فزاد بي جنوني ، وكثرت نواح

فلا هم يجوني ، تراهم عيوني وأنا من شجوني ، ما لي من راح
اهيم بوجدي ، ومن نار كبدي وما حد عندي ، ولا لي رواح
واختم كلامي ، بمدح النهامي تظله الغمامي ، له الحج راح

وها نحن أولاء نرى فى هذا الشاهد كيف وفقت السيرة فى كثير من البراعة بين مدح النبي وذكر الحبيب . ولكننا نلاحظ مغايرة عجيبة فى موسيقاه تذكرنا بالشعر المغربى الذى كان موجوداً أواسط القرن السادس الهجرى فى الأندلس والذى صدف عن القوالب الفصيحة الى قوالب أخرى ، ورغب عن الاعراب وأفاد من الموشحات ، كما أننا لا نغفل صفة المحاورة فيه وأن كانت مرسلة غير مقطعة مما يرجح أنها وضعت ليتغنى بها اثنان بمصاحبة آلة موسيقية . ويروى أن مثل هذا الشعر كان يوضع ليغنيه المنشدون المحترفون فى المواسم والأسواق . وهو الذى يظن أنه أثر فى الأدب الأوربى وأوجد ما يعرف فى أسبانيا بالشعر القروى Villancico [1] ولم تكتف السيرة بهذا بل استغلت العنصر الغنائى المقطع على الحوار أحسن استغلال . مع المحافظة على الوزن والتقفية الواحدة على لسان المتحاورين . مثال ذلك مادار بين الجازية وأحد الحراس على سور مدينة تونس عندما بلغها الهلالية وهى تحتال عليه ليفتح لها ولصويحباتها :

الجازية — يابواب صاره . افتح للعذارى . حنا يامشندر . الى حد السواره
الحارس — روحى ياظريفة . تاشاور خليفه . له حربة رهيفه . تقسم الحجارة
الجازية — يابواب منصور . افتح لى باب السور . ندخل بدستور . ونبيع العطاره
الحارس — المفتاح ماهو بيدى . اروح اشاور سيدى . ذا الباب الحديدى . فى فتحه مشاوره
الجازية — افتح وكن طايع . جبنا لك بضايع . وتحت بدايع . تصلح للامارة

---

(١) أ . جب . تراث الاسلام ص ١٧٠ وما بعدها .

الحارس — لا افتح ولا شى . ولا عقلى بلاشى . ان كنتم عطاشى . اشربوا من البياره

الجازية — يابواب افتح . ها الباب المصفح . بالزينات تصبح . وتنظر للعذارى

الحارس — قال لها عندى . ثريا ثم هندى . نجلا أم سعدى . تصلحوالهم جوارى

الجازية — افتح له شويه . وشوف الحسن فيه . تجيك الرؤية . قديشك حماره

الحارس — روحى ياماليحة . أنا أخشى الفضيحة . وانت مستريحة . وانا واقع بناره

الجازية — افتح ياسودى . لزينات الخدودى . حمره كما الورودى . اذا فتح بداره

الحارس — ليس الشور لى . لاهله أو عليه . اخلف من البلية . واصطلى بناره

الجازية — افتح لا تبالى . ما معنا رجالى . جينا لك ممالى . وحزما للهباره

الحارس — وحق الله ربى . وعنك ما أنا مخبى . وفتح الباب صعبى . ما لى اقتداره

الجازية — افتح ياحبيبى . وجودك لا تغيبى . ترحم للغريبه . كلنا بكاره

الحارس — أنا السلطان حكالى . لا تفتح ولالى . دول قوم هلالى . من قوم مكاره

الجازية — افتح يامعتر . ولا تعتبر كبارا . ميت بفت تحضر . قدامك جهاره

الحارس — لا كون غايب . والامير غايب . ومن طيب المكاسب . يوقع فى الخساره

الجازية — افتح يا ابن عمى . حتى يزول غمى . حزامى فوق تمى . تاره فوق تاره

الحارس — روحى ياحامى . لا تزيدى الكلامى . كله من سلامه . حيلاته كتاره

الجازية — افتح يا أغالى . لا تريدو اللغالى . جلتنا بنسالى . ما فينا ذكاره

الحارس — سلامه معاكم . سامع لغاكم . وهو واقف وراكم . مع بنات الأماره

* * *

أما الحرب وهو الخصيصة الغنائية الثانية فلا يختلف فى ظاهر الأمر عما أثر عن الشعر العربى الفصيح من حماسة أو فخر أو منافرة ، ولكن هذه الأغراض قد بسطت وفصلت بحيث تجسم روح الفروسية خير تجسيم ، وهى من هذه الناحية تفضل سيرة الظاهر بيبرس التى يتخذها الغربيون شاهداً على أدب الفروسية وحديثها يجرى على

ألسنة جميع الأفراد، لأن الحرب، وإن قامت على المبارزة الفردية فى معظم الأحوال، إلا أنها مع ذلك حرب جماعية تتخاصم فيها الأقوام ووصف الوقائع لا يتعدى الصور المحسوسة من الكر والفر والفارس والفرس والسلاح والكثير المتصاعد وما إلى هذا بسبيل وكثير من الشعر يروى على أنه قيل أثناء الواقعة وفيه هو الآخر ألوان من المحاورة المسترسلة. ولكن هذه المحاورة تتداخل فيما بينها حتى تصب فى القصيدة الواحدة وربما كانت موزعة على مقطوعتين من وزن واحد وقافية واحدة ثم التحمتا. ومما يدل على أن الحديث قد انتقل من فارس إلى فارس آخر أن القصيدة تبدأ باسم صاحبها وتنتهى باسم غريمه، وأن اشارة الراوى بعد ذلك تنسحب على الثانى. من ذلك مطلع القصيدة التى تتحدث عن النفساء خليفة الزناتى وديلب بن غانم وهما أهم خصمين فى السيرة :

يقول ابن مهران الزناتى خليفه ولى قلب أقوى من رهيف صقال

وبعد أن يسترسل فى الفخر بنفسه وبشجاعته وما فعله ببنى هلال ترى المقطوعة تتحول فجأة إلى غريمه بهذا البيت :

رد الفتى الزغبى ديلب ابن غانم أنا ولد غانم أنا الصوال

ويسترسل الفارس الثانى فى المنافرة بالقالب الشعرى نفسه حتى ينتهى من كلامه بما يدل على شخصه :

قال الفتى الزغبى ديلب بن غانم فلا بد من سيفى تروح شلال

ويأتى الراوى ليصل بين المشاهد ويحول الانتباه من موضع الى موضع فيقول « ولما فرغ الأمير ديلب من كلامه والزناتى يسمع نظامه . . » وتفسير ذلك أن السيرة عندما اهتدت الى هذا التداخل كانت فى بداية التحول من الغنائية الذاتية الى القصص الموضوعى. وجدير بنا أن نتعقب الموازنة المقتضبة التى عقدها الفرد بل Bel [1]

(١) المصدر السابق ص ٥٨

بين سيرة بنى هلال وبين أغنيه رولاند ، فقد زعم هذا المستشرق الفرنسى أن سيرة بنى هلال لا تبلغ أغنية رولاند ، لا من حيث التركيب ولا من حيث الأبطال ولا من حيث الوقائع . وهو يرى أن الفرنسية قد صدرت عن إيمان عميق ووطنية خالصة ، فى حين أن العربية إنما هى فى أغلب أجزائها حلقات متصلة من الغدر والاغتصاب والسرقة . فان تتبع القصائد المعبرة عن الوقائع والحروب والمشجعة عليها تنقض هذا الزعم من أساسه ، فلم تخرج سيرة بنى هلال عن القواعد المرعية فى فروسية القرون الوسطى بحال من الأحوال ، فقد كان الخصوم يقدر بعضهم بعضا ويمدح أحدهم الآخر عند اللقاء . وكلما شاد الفارس بخصمه زاد ذلك فى قدره لأنه إن غلبه فقد فعل ذلك عن جدارة وهو كفؤه وإلا تركه لمن هو أحدث منه سناً أو أقل مركزا اجتماعيا ، وكان الذى يحصلون عليه غنيمة مشروعة أو تعويضا مقدرا تجيزه شرائع الحرب . والتمثيل بالخصوم بعد مصرعهم إسراف فى التعبير عن العداوة له نظير فى أغنية رولاند وغيرها .

وأفضل من هذا أن نبين وجوه المغايرة بين السيرة الهلاليه والظاهرية فى علاقة الحرب بكل منهما . فقد كانت الأولى بدافع من المحافظة على الذات القومية العامة وكان خليفة الزناتى — مثلا — مسلما نصت السيرة على أنه يحفظ القرآن الكريم ويفهم سوره . والأعداء الذين وردوا من الكفار عجما كانوا أو روماً كانوا أقل فى المرتبة من صاحب تونس ، ولم تكن منازلتهم الغاية المقصودة من السيرة التى كانت تستهدف بلاد المغرب . أما سيرة الظاهر بيبرس فقد كانت حروبها كلها تقريبا فى سبيل الدين . والخصوم هم المجوس والمسيحيون وإن حدثت مناوشات بين أقوام الأمراء المسلمين وأجنادهم فذلك عارض يقتضيه تواطؤ بعض المسلمين مع القوم الكافرين . وبينما نرى التأهب للواقعة والحث عليها والعمل على إذكائها وتشجيعها والمشاركة فيها والمفاخرة بها يقوم به أبطال السيرة الهلالية فى قصائد شعبية على شىء

من الطول ، نجد وصف الحروب فى سيرة بيبرس يورد نثراً على لسان الراوى ولا تكاد تختلف صيغته الوصفية فى جميع المعارك . يستدعيها المحدث مستمينا بما فيها من حرص على حفظها وأدائها عند التقاء كل جيشين . وناحية ثالثة هى أن نظام الفروسية إذا كان من الممكن أن يلتمس من أثر فنى كهذه الآثار الشعبية ، فذلك لا يكون إلا من سيرة بنى هلال مع استثناء طبقة واحدة فى السيرة الظاهرية أو جانب من طبقة وهو المتصل بحياة الفدائيين الحشاشين الاسماعيلية فى قلاعهم ببلاد الشام [1] ، وتزاوج هذين العنصرين الغنائيين الأساسيين الغرامى والحربى أو الحب والبطولة هو الذى تكوّنت فيه سيرة بنى هلال فى صورتها الأخيرة . وقد بلغ هذا التزاوج أوجه فى الديوان الخاص بالجازية الذى يقوم على إيثار الحب القومى العام على الحب الخاص . وفى المواضع التى تظهر فيها سعدى ابنة خليفة الزناتى صاحب تونس فى الزيادة والتغريبة على السواء حيث تغلب الحب الخاص على الحب القومى العام فتعين العدو على الظفر بأبيها وبلادها . وربما يبدو فى هذين الوضعين شىء من التناقض تنكره الوحدة الفنية يسلك الصراع النفسى الأول مع الأنواع الكلاسية التى تضحى بالعاطفة فى سبيل الواجب . وتسلك الثانية فى الأنواع الرومانتية التى تفضل العاطفة على الواجب . ولكن هذا التناقض يزول إذا نظرنا إليهما فى مجموعهما من وجهة نظر المنشئين الأول للسيرة وهم الهلالية وأحلافهم وأعقابهم . إلا أن غلبة النزعة الغنائية فى تينك العصرين هى التى دفعت مكايل Mackail [2] إلى أن يضعها فى الأدب الرومانتى ودفعت ببعض المستشرقين المعنيين بالجانب الغربى من العالم الإسلامى إلى الالتفات إلى هذه السيرة وأضرابها تأييداً أو إنكاراً لأواصر الاتصال بينها وبين الآداب الأوربية الجنوبية .

---

(١) راجع الفصل الأول من سيرة الظاهر بيبرس لكاتب هذه السطور .

(٢) Mackail المصدر السابق ص ١٢٣

ومما أعان على الوحدة فى هذا العمل الفنى المتنوع العناصر ظهور المنشد المحترف وبه دخلت سيرة بنى هلال فى طور آخر يختلف عن الطور السابق ، فى أنه يضيف اليها بعض الخصائص الخارجية التى تلون السيرة من ثلاث جهات : الأولى ، تقوية الغنائية فيها بالانشاد المصاحب للموسيقى . وهو يعتمد على تنظيم النبرات الصوتية للمنشد والتصرف فى أوزان الشعر ، وكثيرا ما يخون المنشد الحفظ أو أن تكون الرواية التى نقلت اليه غير مضبوطة الروى ، فيتحكم فيها ويطوعها للوزن بنبرات صوته ، وهذا هو الذى دعانا الى الاحتفال بالاستماع الشخصى . وتصاحبه فى الانشاد آلة موسيقية سنصفها بعد ، وهى تتسم بخصيصة على جانب كبير من الأهمية ، وهى قربها العجيب من الصوت البشرى فتبرز النغم وتقسمه وتضبطه وتساير الوزن والانشاد معاً . وضاعف على إبراز هذه الناحية وتقويتها ما دخل على قوام السيرة نفسها من تعديل جعل كثيرين من أبطالها المعدودين يتنكرون فى زى المنشدين المتجولين ويبرز مثل لهذا ما قام به أبو زيد وأصحابه الثلاثة فى الزيادة . الثانية ، تتصل بالسرد القصصى ، فقد دفع ظهور هذا المنشد المحترف إلى استقرار السيرة على صورة معينة واضحة القسمات مرتبة الأجزاء فى سياق متتابع ، كما دفع إلى العناية بتصفية المشاهد وتركيزها وعدم التداخل المعقد فيها ، لأن حاسة السمع ليست كالبصر فى القدرة على الإحساس المركب من أشياء مختلفة فى آن واحد ، إلى اصطناع التكرار والاسترجاع فى الشعر للتذكير والتنبيه . وهى التى حددت للنشر وظيفته الثانوية التى يقوم بها فى تنظيم دخول الأشخاص إلى المشاهد وخروجهم منها إلى بيان نقلتها ووصفها . الثالثة ، يمكن أن تعد دراسية لأن المنشد يجنح فى كثير من الأحيان إلى التنويع فى نبرات صوته رفعاً وخفضاً بحيث تلائم مواقف الحماسة والأمر والنهى من ناحية ، والغزل والتأمر والكيد من ناحية أخرى . كما يحاول أن يحاكى مختلف اللهجات فيرسل القول على لسان الزناتية بصورة تختلف عن صورتها عند الهلالية

المنشـــد المحترف

وعند أولئك وهؤلاء بلغة تباين لغة اليهود والروم والعجم والسودان ، ويقلد الأصداء والخدم والرجال والنساء . ثم أنه فوق هذا كله يصطنع الاشارة بوجهه قبضاً وبسطاً ، عبوساً وابتساما ، ويستعين بحركات يديه تاركا الانشاد الغنائى إلى ما يقرب من التمثيل . وهو وإن لم يتخذ زياً معيناً إلا أنه يرغب دائما عن الزى الافرنجى الحديث لشعوره بمجافاته لجو السيرة العام ويشترك معه فى استحداث التأثير اثنان أو ثلاثة وهم ينشدون معه أحياناً أو يرددون بعض ما ينشد . ولكنهم فى الواقع يقومون بعمل آخر غير عمل المنشدين المساعدين أو الجوقه Chorus تجعلهم أدنى إلى الأدوات المسرحية فان المنشد يحمل سيفاً من الخشب فى مواقف الفروسية والحرب ، وهو يشير به إلى هؤلاء المساعدين تخييلا للناس أنهم عدوه ، وما أن يصوّبه إلى أحدهم حتى يترنح أو يميل . ولم أسمع أن هذا العمل الدرامى الخارجى موجود على هذا الوجه عند « المحدثين » فى سيرة الظاهر بيبرس ولا يتجاوز من يعاون المحدث شخصاً واحداً . وعدد المنشدين آخذ فى النقصان . وقد روى لنا منشدنا أن فى القاهرة الآن حوالى مائة منشد فيهم من يتخصص فى سيرة بنى هلال أو أبى زيد كما نعرف على التخصيص وفيهم من يؤثر عنترة والزير سالم . وهم فى الريف أكثر منهم فى المدن وفى الإسكندرية أروج منهم فى القاهرة .

ولم يتغير الحال عما شاهده المستشرق الانجليزى أدوارد لين Lane منذ أكثر من ثمانين سنة فلا يزال المنشد يتخذ مكانه على منصة ثابته أو متنقله بحيث يشرف على مستمعيه . ويكون ذلك فى الندوات الليلية المعروفة « بالقهاوى » أو فى المواسم كالموالد والأعياد أو فى الحقول كالأفراح . وسنصف هذا الجمع من الناحية النفسية فى باب مقبل . وهو يتفق مع صاحب القهوة على أجر معلوم ، وهذا الأجر زهيد فى العادة لأن المتعاقدين عرفا يدركان أن من تقاليد الاستماع أن يدفع القادرون « نقطة » للمنشد تظاهرا أو إعجابا بيد أن لين Lane يذكر أن المنشد يستعين بمساعد

واحد[1] لاغير ، وقد سمعت أنهم يبلغون الآن الثلاثة . كما أنه يختلف معنا فى الآلة الموسيقية المصاحبة للانشاد . ولعل هذا الخلاف يدل على تطور أصاب السيرة والانشاد وإن يكن خارجيا وقلما يستعين المنشد بكتاب مخطوط أو مطبوع فى الحفظ أو الاداء والمعالم الأساسية للسيرة بصورتها الأخيرة لا يصيبها التغيير إلا لماما ، فان كثيرين من المستمعين يحفظونها بسردهم ، وهم على استعداد دائما أبدا لمراجعة المنشد إذا أخطأ أو انحرف وبخاصة فى المواضع . ولكن المنشدين فى الريف لا يحترمون نصوصها كل هذا الاحترام ولا بأس عليهم من إقحام بعض الأغانى الشعبية كما هى فى أماكنها أو إغفال بعض أجزائها .

وليس الخلاف بين الذى استمعنا اليه بآذاننا ورأيناه بأعيننا ، وبين ما قرأناه عن ابن سينا فى اسم الآلة الموسيقية ، لأننا نتفق معه فى أنها « الرباب أو الربابه » ولكن الخلاف فى إطلاق هذا الاسم ، فهو يسمى الرباب المعروف فى بيئتنا المصرية الآن باسم « الكمنجة » والرباب عنده آلة موسيقية أخرى تعرف عند أهل الصناعة الآن باسم « القيثارة » ويقص على أنها « رباب الشاعر » أو « رباب أبى زيد »[2] وهى عبارة عن آلة واحدة الوتر يبلغ طولها تسعين سنتيمترا تقريبا وجسمها على هيئة شبه المنحرف وهو من الخشب من غير قاع ووجهها مغطى بقطعة من الجلد وتستند الى دكانة من الحديد ، ويتألف الوتر من شعر الخيل وكل ما عدا هذا يشبه ما نعرفه الآن « بالربابة » .

وهذه الربابة عبارة عن آلة موسيقية ثنائية الوتر يتفاوت طولها بين ستين ومائة سنتيمتر وصندوقها الصوتى جوزة فارغة أزيل ما يقرب من ربع حجمها وقام

---

(١) ادوارد لين هذا المصدر المذكور ص ١٠٤

(٢) المصدر المذكور ص ٧٠ : ٧١

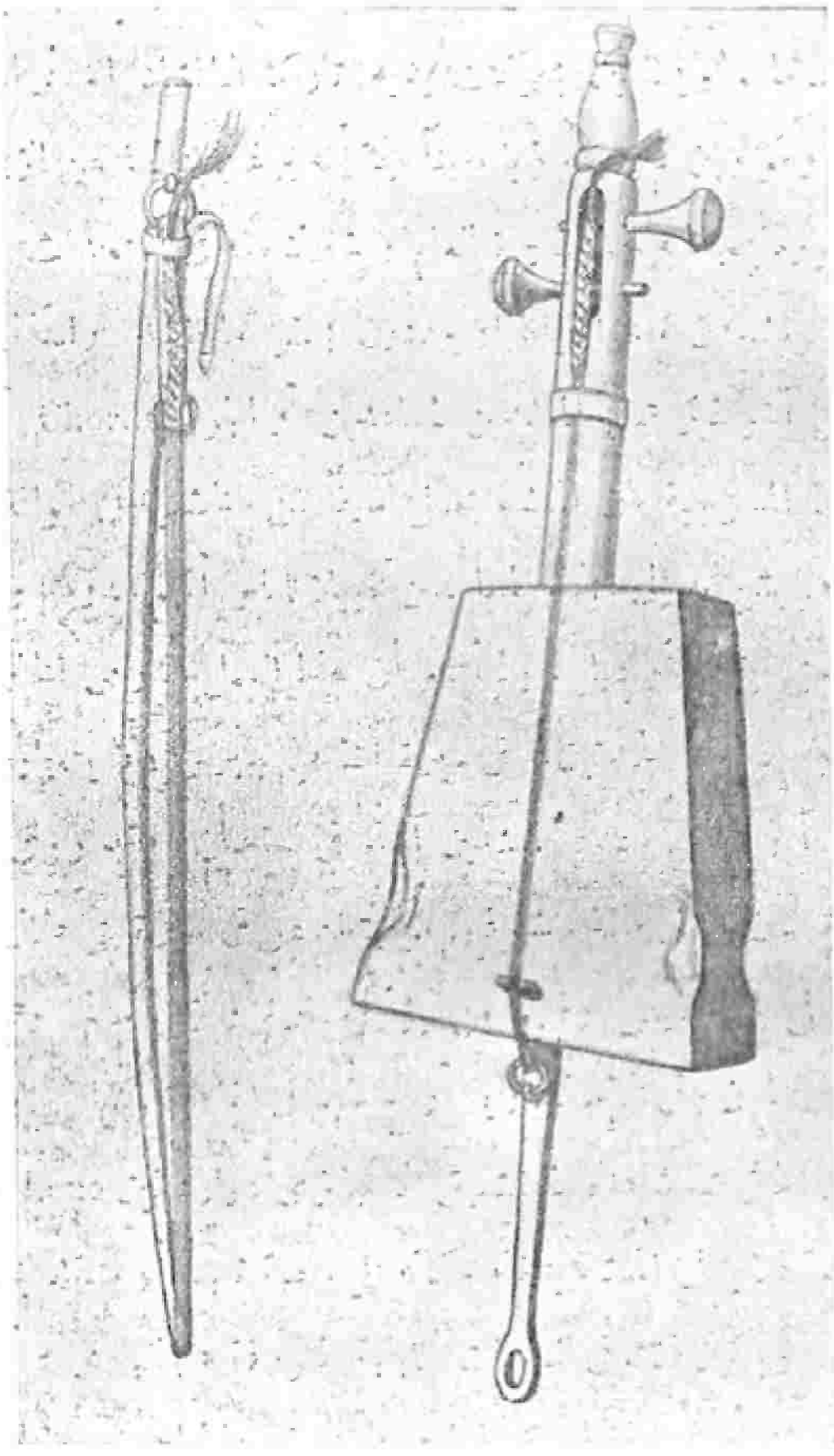

الربابة القديمة التى كانت معروفة عند أهل الصناعة بـ « القدح »

الربابة الجديدة التى كانت تعرف بـ « الكمنجة »

الخراط بتسويتها وتزيينها بالثقوب والحلى وهى مغطاة « برقه » من جلد السمك (البياض) واسمه العلمى (Silurus) تلصق بها بواسطة الغراء ويوضع عليها قطعة من الفلين أو ما يشبهها تسمى « الغزال » ويركب على هذه الجوزه ساعد من الخشب أو الخيزران وقد يكون من الأبنوس المطعم بالعاج وهو اسطوانى الشكل كالقضيب . وينتهى الساعد بـ « معوال » من الحديد يثبته فى الجوزة . وفى أعلى هذا الساعد « ملوتان » والجمع (ملاوى) أى مفتاحان . وقد تلبس رأسه بقطعة من العاج . ولهذه الربابة وتران مشدودان كل منهما ستون من شعرات الخيل ويجدل كل منهما عند رأس الساعد بحبل رفيع حتى يستطاع شدهما على الملويتين ويتصلان بحلقة من الحديد عند المعوال أسفل الجوزة وفى حوالى نصف الساعد تؤخذ « عصابة » من الجلد على الشعر . وهذان الوتران أحدهما « دوكاه » والآخر « نواه » ويكون التصرف فى الأنغام بتقطيع الوترين على الساعد بواسطة الأصابع

ويتناسب طول القوس مع طول الربابة وهو عبارة عن عصا من خشب الشوم أو الخيزران ويعدها الخراط ويثقبها من ناحيتيها ويدخل الشعر من أحد الثقبين بعد أن يعقد وبالقرب من نهايته يمرر بجلبة معدنية ويحبك آخره فيه بخيط ويوصل بين هذه الجلبة وجلبة أخرى مثبتة فى الثقب الآخر من القوس بقطعة من الجلد طولها حوالى ثمانى سنتيمترات وذلك لشد الشعر أو إرخائه .

وقد رأينا أن نثبت صورتين فوتوغرافيتين لايضاح هذه الآلة باقسامها وكيفية استعمال المنشد لها .

ولا تدل هذه المغايرة بين ما رأيناه وبين ما رآه Lane على خطأ هنا أو هناك وإنما يدل على أن شيئا من التجديد قد دخل فى صناعة المنشد جعله يتحول من « القدح » الى « الكمنجة القديمة » وظل الاصطلاح فى الحالين واحدا وهو الربابة

لدلالتها على أمثال هذه السيرة الشعبية ولعلها أقوى دلالة على سيرة بنى هلال لأن أبا زيد يرسم كثيرا فى صورة المنشد كما قدمنا وهذا التجديد نفسه هو الذى ضاعف من عدد المساعدين وأضاف بعض الوسائل الخارجية وقد لمسنا تجديدا آخر فى الأنغام ، فان المنشد اليوم كثيرا ما يعدل عن اللحن القديم الى لحن جديد (كما يتضح ذلك من النوتات الموسيقية التى أثبتناها) وليس هذا التجديد بالأمر الغريب لأن بعض المنشدين قد تجرأ وتحول الى « الكمنجة الحديثة » وفيهم من يستعمل آلات موسيقية متنوعة . ولم يشمل هذا التجديد موضوع السيرة ولا أسلوب الانشاد كما أنه لم ينل من التقاليد التى مكن لها التكرار فى الاستهلال والختام شعراً وموسيقى . وفيما طرأ على النشر من عبارات يتضح فيها توجيه الخطاب الى مستمعين . وليس شك فى أن هذا الجانب أوضح فى سيرة الظاهر بيبرس التى تقوم بالنثر ، وقد فصلناه هناك ولا محل لتكراره هنا [1]

ومن العسير علينا والحالة هذه أن نقول إن السيرة الهلالية ملحمة "Epic" لأنها تقوم بالشعر وتتحدث عن الحرب والبطولة وأنها صدى لحياة فاعلة وأنها تثير فى المتذوقين من المشاعر ما نجد له ضريبا فى الملاحم المشهورة . ذلك لأن الطابع الغنائى يزحمها فى كل ناحية ويكاد لا يخلو موضع من هذه السيرة دون أن نجد فيه شعورا ذاتيا وإن صدرت بأكملها عن قوم أو قبيل . وما نستطيع كذلك أن نحكم عليها بالغنائية الخالصة وهى فى موضعها العام وفى طريقة سردها تتخذ مظهراً منافياً للغنائية : وعلى الرغم من ظهور العنصر الدرامى فيها . فان بدائيته وسذاجته ووقوفه فى التطور عند حالة جنينية يباعد بيننا وبين أن نسلكها فى هذا الضرب من الفن القولى . ومن الكلم المأثور فى الفنون الجميلة أنك لا يمكن أن تحصل على تعريف جامع مانع

---

(١) المصدر المذكور ، ص ١٥١

(1) قسم قديم كما أورده المستشرق إدوارد لين

(2) قسم حديث كما أورده المستشرق السير فرج السيد

Manners and Customs of the Modern Egyptians : Edward W Lane (1)

ج ١ ص ١٠٥ طبعة ١٨٤١

تطبقه على أثر من الآثار الفنية الجديرة بهذا الاسم ، وليس فى وسع ناقد أن يقول من أى صنف هذا الأثر وقصاراه أن يفطن الى البواعث التى أوجدته فنا سويا .

وخير لنا أن نختم هذا الباب بكلمة مكايل Mackail [٢] فى هذه السيرة . أن رؤية الشعر عند إبداعه أمر نادر وعجيب ، ولكننا نستمتع هنا بمغنم بديع لا مثيل له . فها نحن أولاء نرى فصيلة شعرية بأسرها (يقصد سيرة بنى هلال) إبان تكوينها . ونتذوق مثالا من أنبل مثلها (يقصد القطعة التى استشهد بها وترجمها ولفرد بلنت) بل لعله أنبلها جميعا ، وهو يعرض علينا فى براعة لا يقطع أرسطو فى كتابه « الشعر برفضه أو انكاره » ولنقلب بعد ذلك صفحة أخرى فى دراسة هذا الأثر الفنى بعد أن تبلور ، وتفاعله مع الذين يعيشون فيه ثم مع الذين يتذوقونه ويستمعون اليه .

---

(١) كانت هذه السطور ، سيرة الظاهر بيبرس ، مخطوط ، الفصل الموسوم « فن السيرة » .

الباب الرابع

السيرة

بين الواقع والخيال

من الثابت أن شوارد السيرة الهلالية كانت تذاع فى الناس على أنها من الحقائق الواقعة لا يشك فيها قائلها أو متلقيها ، وهى من هذه الناحية لا يمكن أن تكون أسطورة من أساطير الأولين ، ذلك لأن الأسطورة إذا حددناها جعلناها ترجمة للكلمة الأوروبية Myth فانها تعنى رواية أفعال إله أو شبه إله باصطلاح الفكر البدائى ، كما أنها محاولة لتفسير علاقة الانسان بالكون أو بنظام اجتماعى بذاته أو عرف بعينه أو بيئة لها خصائص تنفرد بها [1] . وليس فى سيرة بنى هلال آلهة أو أشباه آلهة ، لا لأنها صدرت عن العقلية العربية المجردة فحسب ، ولا لأنها نشأت فى بيئة عرفت التوحيد ، ولكن لأنها كانت تسرد حوادث أناس ثبت لنا من الدراسة التاريخية أنه كان لهم كلهم أو جلهم وجود واقعى . وقد عرضتهم فى حالتهم الانسانية ، فلم ترفعهم عن طبائعهم ولم تسلكهم فى الكائنات الخرافية ولم تسبغ عليهم من خوارق الصفات ما يتنافى مع الارادة البشرية ، وسنرى عند ما نعرض لشخصياتهم أن التجسيم لم يضف إليهم صفة لم تكن موجودة فى محيطهم الاجتماعى . وهى وإن تعرضت لنظام اجتماعى أو عرف متبع أو بيئة مشخصة بالتجريح أو المدح ، فلم يكن ذلك هو المقصود منها ، وإنما جاء عرضاً واتفاقا وربما احتفل العالم بالأساطير بمثل هذه العوارض واستطاع أن يردها إلى أصولها فى عقائد

---

(1) لويس سبنسر Lewis Spencer : Introduction to Mythology ص ١١ و ١٢ لندن ١٩٣٩

أجيال أو بيئات قديمة أو متوغلة فى القدم . وليس هذا ما نقصد إليه ، وحسبنا أن نقول ، ونحن بصدد الحديث عن صلة السيرة بالواقع التاريخى ، إنها رواية شعبية غير ذات طابع أسطورى أصيل . وما يستطيع أحد ان يثبت فى يسر أنها نشأت عن أسطورة وأن السمة الواقعية التى نراها عليها إنما تدل على تطورها بتطور العقلية التى تتناقلها . لأن هذه الواقعية صفة ملازمة لها ، ولدت معها ولم تفارقها فى جميع الأطوار التى مرت بها .

ومن الواجب أن نوازن بين سيرة بنى هلال وبين ما أثر عن « أيام العرب » المضرية ، فنحن نعلم أن كل قبيلة كان لها تراث أدبى يعلو فى كثير من الأحيان على مستوى الادراك العام للقبيلة ولا يوجه إليه من أفرادها أو أجيالها نقد أو تجريح ، بيد أن هذا التسامى لا يجعلها أسطورية أو خرافية وإن شابتها المبالغة والتهويل . ومحور هذا التراث التاريخى هو الفكرة التى يدور عليها النظام القبلى القائم على الأنساب . والقالب الذى صب فيه هذا التراث من الأهمية بمكان فى موضوعنا . فهو يشمل معظم الأيام التى خاضتها القبيلة فى محاربة عدوها . وقد رأينا أن الرواية كانت تعتمد على الشعر والنثر معا . ولم يكن التناسب بين هذين الضربين من التعبير بمقدار واحد . فكثيراً ما نرى مقطوعة شعرية مقحمة فى رواية نثرية . أو نرى الرواية تقوم بالشعر ويحدد النثر تفسيراً له . ومهما يكن من شىء فقد كان هذا الشعر كما بينا فى الباب الرابع من الكتاب الأول ، هو الحفيظ على تراث القبيلة ، فاذا انفرط الشعر أو ضاع بالنسيان ، انمحت الرواية النثرية معه . وتظل حلقات الرواية ما ظلت القبيلة ، فتعوضها عما ضاع من تراثها . وطبيعى أن هذه الروايات التى يمكن أن تسمى تاريخية ، كانت مصطبغة بصبغة التحيز ، لأنها صدرت عن وحدة اجتماعية خاصة فى علاقاتها بالوحدات المماثلة لها . فهى تخضع لأهوائها فى انتخاب حوادث وإسقاط غيرها وتجسيم وقائع وتهوين أخرى ولم تكن تهتم بترتيبها على سياق زمنى متتابع ،

وإنما كانت تحتفل بها من حيث اتصالها بحياتها ومن حيث أهميتها فى وجودها ، ومن حيث قيمتها فى إبراز فضائلها التى ترفعها فى المحيط القبلى العام . وليس يستطاع تبيان أزمنة حدوثها على التحقيق ولكنها مع هذا كله تدور فى فلك من الحقيقة والصواب بالنسبة الى أصحابها . وتشبه السيرة الهلالية القيسية المضرية تلك الأيام من حيث القالب ومن حيث الوظيفة ، فقد كانوا قبيلا أو مجموعا من القبائل انتظمهم حلف عام دعا اليه باعث حيوى ليس الى مدافعته من سبيل . وانضم تراث كل قسم الى سائرها وتألف من المجموع ، التراث العام الذى تتدرج فيه علاقات بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم جميعا بعدو مشترك ، وأكثر هذه وتلك ثارات وحروب . والقالب الذى يضم هذا التراث العام هو بعينه قالب الأيام يتوزع الرواية التاريخية فيه ، الشعر والنثر ، والعناية الجماعية منصرفة بكل قواها عن غير وعى منها ، الى المحافظة على ذاتها العامة ، فهى تحتفل بأيام دون أيام ، وتفضل مشاهد على مشاهد ، وتبالغ فى رواية وتسقط أو تهون من رواية أخرى . والسياق الزمنى قليل الأهمية بالنسبة الى الكيان الجماعى . بيد أن هناك مغايرة ملحوظة بين أيام العرب والسيرة الهلالية ، فالتناسب بين الشعر والنثر فى الأولى ضعيف أو معدوم ، وكل منهما يمكن أن يحل مكان الآخر . أما فى الثانية فالتناسب بين هذين الضربين من التعبير قائم محدد بحيث لا يمكن أن يتحيف أحدهما الآخر . وقد رأينا أن الشعر فيها هو الأصل والنثر تابع له . كما أن الوظيفة قد تعدلت فلم يعد التراث يقوم بما كان يقوم به فى حياة القبيلة ، وإنما أصبح يقوم بوظيفة أخرى ذات طابع آخر ، سنتحدث عنه بعد .

ولا مجال للتساؤل بعد هذا عن سيرة بنى هلال وصلتها بالتاريخ فنحن نعدها وثيقة تاريخية لا تقل فى الأهمية عن الروايات المدونة فى أمهات الكتب وليس يضيرها تنقلها بالرواية الشفوية ، فقد كانت الأولى كذلك . ولا ينقص من قدرها

إلا انعدام الاسناد الذى يتبع الرواة جيلا بعد جيل ، فان الشك فى هذه الأسانيد لا يجعلها المعتمد وحدها دون دراسة الرواية نفسها . وإذا كان المؤرخون يعدون هوميروس [1] من وثائقهم الخطيرة التى تجلو لهم حياة يونان فى ماضيها القديم ، فان سيرة بنى هلال لا تقل عن ذلك خطراً فى إماطة اللثام عن حياة القوم الذين صدرت عنهم ، عرباً كانوا أو غير عرب ، ذلك لأن الالياذة والسيرة يجنحان إلى التخصيص فى إيراد الوقائع والأخبار ، وهما بهذه الخصلة يفضلان التاريخ ، سواء احتفل بمجرد السرد والإخبار ، أو اهتم بتتبع العلل واستنباط الأحكام . ولا خلاف فى أن حياة هؤلاء المنشئين للسيرة والمتذوقين لها على السواء لم تكن مجردة ، بل كانت حية ملموسة ، وهذه التفصيلات التى يرويها بعض طلاب التاريخ هى مادتها الانسانية . واتخاذ سيرة بنى هلال أسلوب الحديث الشخصى المباشر ومنهج التراجم الفردية ، ابعدها عن التعميم الملازم للتاريخ وجعلها أدق منه لأنها إنما تعرض صورة نابضة بالحياة جياشة بالمشاعر الانسانية . ونحن لم نعتمد عليها فى دراساتنا التاريخية فى الكتاب الأول لنستطيع أن نوازن بين الصورة المستخلصة من الأخبار التاريخية ، والصورة المستخلصة من هذه الروايات الأدبية .

ومن العجيب أن سيرة بنى هلال التى لم تتحدث إلا عن نفسها ، وإذا ذكرت غيرها فلمجرد الابانة عن علاقته بها ، كانت صادقة فى رسم الاطار العام للعالم الاسلامى الذى اضطربت فيه . وهو العالم الذى شهد مجالات نشاطها منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) والذى احتفظ بصورته الخاصة على الرغم من التغيرات السياسية التى تعرض لها ، والتى لم تنل منه غير السطح ، أما ما وراء ذلك فظل على حاله بمشخصاته الثابتة .

(١) George Macaulay Trevelyan: Uni History ج ١ ص ١٣ ب

ولم ترسم السيرة حدود هذا العالم كما تعود أصحاب التاريخ إحاطته بالمواضع المعروفة فى القانون الدولى الاسلامى بـ « دار الحرب» وإنما إحاطته بالأعداء أنفسهم ولم تقسم هذا العالم على أساس الدين وإنما قسمته على أساس القومية الملونة بالدين . فسلكت العجم مع المغل مع الروم فى صعيد واحد وجعلتهم جميعاً من غير المسلمين الذين يحل قتالهم واستباق أموالهم بل أنها أضافت إليهم عنصراً من أصل عربى . ولم تستهن بهم أو بقوتهم ، بل اعترفت بشجاعتهم ورمتهم متوغلين فى العالم الاسلامى قرارهم الحلة والكوفة ، وجعلتهم يتغلبون على الهلالية أكثر من مرة ويأسرون المارية ابنة قاضيهم بدير بن غايد . ولكى تظهر المباينة بين هذا المجتمع والمجتمع العربى المسلم جعلت الأولين يحلون الخمر ويحتسونها ويتوسلون بها إلى قضاء مآربهم المنافية للأخلاق العامة .

وأبرزت السيرة الهلالية في هذا الاطار علاقة اليهود بالمسلمين فذكرت أنهم كانوا يعيشون فيه أحراراً لا يلقون كيداً أو اضطهاداً وأنهم كانوا يشتغلون بالتجارة والصيرفة كعهدهم فى كل أمة أو جيل وأن حرصهم على المال لا يعدله حرص ، ولكنها زادت على ذلك بأن اليهودى النابه قد يصبح أميراً ذا شأن فى العالم الاسلامى ، ولعلها جنحت إلى هذا لتبين بعض الخصائص القومية فى موضع بذاته . فذهبت إلى أن حلب كان يغلب عليها يهودى اسمه برجيس أو برديس ، كما بينا فى الباب الأول من هذا الكتاب ، ولم تورد له عصبية يهودية تؤيده فى إمارته . كما أنها لم تفرق بين اليهود والروم فى المشخصات العامة فرسمت شكاة التجار فى حلب إلى صاحب قبرص الذى بادر إلى نجدتهم واشتبك من أجل ذلك مع الهلالية وهم بين حلب وحماه . وأغفلت النصارى المقيمين فى العالم الاسلامى . فكانت مناقضة بذلك لسيرة الظاهر بيبرس التى جعلت هؤلاء النصارى هم الطابور الخامس المستعد دائماً أبداً للقضاء على المسلمين . ولعل الجمع الهلالى لم يستطع التفريق بين المسلمين

والنصارى الذين لا يختلفون زياً وسحنة ، لأنه لم يكن صاحب استقرار يدفعه إلى اختيار الحياة الاجتماعية للمواضع التى يلم بها فى أناة ودقة وتفصيل .

والمتأمل فى هذا الإطار لا يهتدى مهما أمعن النظر إلى حكومة مركزية تمد سلطانها عليه وتجمع المتفرق من أعماله وأمصاره . والواقع أن العالم الاسلامى كان منذ ذلك الحين منقسما على نفسه قد استطاعت قومياته المختلفة أن ترفع رأسها وأن تستقل بأمورها ، وأن تحاول ما أمكنها التغلب على غيرها . وأصبح رئيس كل جماعة هو المتصرف فيها . وكادت تقتصر كل مدينة على شئونها لا تتعداها وكأنها دولة مستقلة بذاتها . وبديهى أن هذه الظاهرة كانت أوضح للهلالية منها لغيرهم فلم يحسوا بحكومة مركزية ولو وجدت لكان لها صدى فى حوادثهم . وكان كل الذى يحسونه حكومة المدينة أو الاقليم الذى يمرون به . ومن ثم تصوروا العالم الذى تحركوا فيه على أنه مجموعة من المدن المستقلة والامارات المنفصل بعضها عن بعض ، يقوم عليها أمراء من أهلها أو غيرهم على كل منها رئيس يعاونه وزراء ، يدعم سلطانه جيش خاص به .

والذى يدعو إلى الدهشة أن الذاكرة الهلالية وبعدها الذاكرة الشعبية المصرية استطاعت الاحتفاظ بمثل خبر دبيس بن مزيد أمير الحلة المزيدية والملقب بملك العرب الذى ذكره الحريرى فى إحدى مقاماته [١] والذى لقى مصرعه أوائل القرن السادس الهجرى (عام ٥٢٩ هـ) [٢] بعد أن استولى على كثير من مدن العراق أيام الخليفة المسترشد العباسى . ولكنهما سكتتا عن الخلافة العبيدية الفاطمية التى امتد ملكها من المحيط الأطلسى إلى الحجاز والشام والتى كان بينها وبين الهلالية وقائع وأحداث أثرت فى مصير الفريقين ، والتى غلبت على ديار مصر وتحولت إليها

(١) أنظر المقامة التاسعة والثلاثين .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، القاهرة ج ١ ص ٢٣٢

وأضافت إلى مجتمعها كثيراً من الشعائر لا تزال مرعية فيها إلى الآن . ونحن نتساءل أكان هذا الصمت عن نسيان اقتضته حياة السيرة الطويلة وكثرة تنقلها بين مختلف البيئات ، أم كان عن إسقاط متعمد لفترة لا يحب القائلون أو الرواة ذكرها أو تكرارها . . . لم نصل بعد إلى قرينة تؤيد هذا الرأى أو ذاك

وإذا تركنا الاطار إلى المضمون الحقيقى للصورة وركزنا عليه انتباهنا فاننا نستطيع أن نتبين روح الجمع الهلالى التى تسيطر على كل شىء فيه . وعلى الرغم من أن سيرة بنى هلال تقص آثار ذوات معينين ، إلا أن ذلك لا يمنعها من تصوير الجمع. وقد ساعدها على المزاوجة بين الأحدية والجمعية ، إذا صح هذا التعبير ، أن القبيلة أسرة مكبرة تعرف بأبيها الذى يقوم فيها بأهم وظيفة حيوية بالنسبة لها ، ألا وهى الحماية . وما هذه الأسماء المشهورة ، إلا أجيال تتزعم الوحدات الجماعية تزعم الأب لأسرته كذلك كان سرحان ورزق وغانم ، وكذلك كان أيضاً حسن وأبو زيد ودياب ، حتى إذا انصرمت الأجيال الكبيرة حل محلها جيل أصغر كبريقع ورزق ونصر ، قام فى مقام آبائه فى التكفل بالمصالح العامة . ونسبة جميع الأعمال للأمير ليست كنسبتها لقائد الجيش أو رئيس الدولة . وشخصية كل أمير من هؤلاء الأمراء شخصية حقيقية لا معنوية مهما اتسع الجمع الذى يشرف عليه . ومن هذه الأبوية (البطرقية) استمد هؤلاء الأمراء سلطانهم فأصبحت كلمتهم هى القانون ، وربما كانت أقوى منه فى تسليم الجمع بها وطاعتهم لها وعدم التمرد عليها . بل ان عواطفهم لتترجم عن عواطف الجمع قبضاً وانبساطاً ولا محل إذن لمثل ما قاله بل Bel من أن هؤلاء الأمراء شخصيات ثانوية فى المجتمع البدوى [١] .

وكانت المرأة فى هذا الجمع الهلالى ذات أثر بارز ، فقد كانت سافرة غير محتجبة وكثيراً ما صورت الفتيات الهلاليات وهن فى رياضتهن وسمرهن وكن يستمتعن

---

[١] La Djezya ص ٣٥

بقسط لا بأس به من الحرية بعكس ما أثر عن المرأة فى البيئات الاسلامية المتحضرة ولكن يبرزن غير محتشمات فى بعض الأحايين .

وكان لهن تأثير فى آبائهن يدفعنهم إلى القيام بعمل أو الاحجام عن غيره . ولا يؤثر عنهن حب تستنكره الجماعة لأن ما يصبهن من سوء القالة يصيب الجماعة التى ينتسبن إليها . وكانت الزوجة أبرز من الفتاة فى هذا المجتمع وأظهر وأشد تأثيراً فى الحوادث والرجال وأصرح فى التعبير عن عواطفها الخاصة نحو زوجها لأن الجماعة الهلالية كانت تبيح ذلك وتشجع عليه . وإذا عرفت إحدى النساء بقوة الشخصية أو القدرة على التأثير وسع لها فى مكان الصدارة تشارك فى القيادة وتشير فى حل المعضلات وتستغل أنوثتها بقدر للظفر بنصر لجماعتها ولكن هذا الجمع الذى سكت عن الحب بين فتيانه وفتياته ، لما قد يكون له من صدى فى سمعة القبيلة لم يرد بأساً من الاحتفال به خارج هذا المجتمع والعمل على تشجيعه حتى ينتهى إلى نتيجته المسايرة للمثل الاخلاقى وهى الزواج . من ذلك ما فعله أبو زيد ورفقاؤه الثلاثة بمساعدة « مغامس » فى الحصول على ابنة عمه التى كان يحبها قبل أن يبلغوا مصر فى ريادتهم الطريق إلى الغرب . ومما يدل على اعتزاز الجماعة الهلالية بنفسها ما ذكرته السيرة من أن «صعدى» ابنة خليفة الزناتى قد شغفت بمرعى حباً ولكنه لم يبادلها مثله ، ورضيت الحب من جانب طرف واحد وجعلت الفتاة تقوم بالجانب الايجابى فيه دون الفتى لا لشىء إلا لأنه هلالى وهى زناتية . وكان الرجل يبنى بأكثر من زوجة إلا أن واحدة منهن هى المخصوصة دائما بالحظوة لانجاب البنين . ولكن هذا كله لا يحول بيننا ونحن نتابع هذه الصورة من إدراك أن الرجل فى المجتمع الهلالى هو القوام على المرأة المتكفل بجميع مصالحها ، وأن مكانها عند الهجرة والحرب — إلا النابهة منهن — فى المؤخرة مع العجزة والجهال والمال .

وسيرة بنى هلال أوضح من التاريخ فى تصوير الهجرة الجماعية عند الهلالية وإضرابهم ، فلم تتردد مرة واحدة فى القول بأن الباعث عليها إنما هو القحط ولاشىء غيره . فقد اجتاح بلاد السرو وعباده جدب ما حل أكره بنى جابر جميعاً على النقلة إلى نجد والاقامة مع بنى جبير ، ثم دخلت نجد بدورها فى سنين عجاف أتت على الأخضر واليابس ، فلم تر العشائر بداً من الرحلة الاجبارية إلى الغرب . وتصويرها لوطأة هذه النازلة العامة لا يمكن أن يبلغه التاريخ بحال من الأحوال . أنظر إليها وهى تعرض نجوع مختلف البطون وكيف مرت يد الجفاف على معالم الحياة فحولتها إلى جماد لا غناء فيه . . . وكيف فزع الناس إلى أشياخهم وكيف كان الهلالى يبادر إلى بيع فلذات أكباده ، لا ليطعم هو وزوجته ولكن ليطعم ضيفانه . . . وليس لهذه السيرة الهلالية نظير فى تفصيل الأهمية لمثل هذه الرحلة الجماعية ، فهى تبدأ بطبول الامارة تعلن باصطلاحات معينة دقات الرحيل فتجاوبها طبول النجوع فى منازل الأعراب جميعاً ، وما هى إلا لحظة حتى تقوض البيوت ويجمع المتاع وتحشر الأنعام ويرتب الركب ويتخذ كل امرىء مكانه المقدور فيه ، بلا خلاف أو تزاحم ، وهذا الاستعداد الجماعى يشبه الحركات العامة فى الجيوش النظامية . بيد أنه لا يضبط بواسطة الأوامر الصارمة فى الحياة العسكرية ، ولكنه يضبط بمقتضى تقاليد عرفية استقرت فى نفس الجماعة منذ أمد بعيد جداً ، وقامت منها مقام الغرائز من الكائن الحى .

وتحدث التاريخ — كما رأينا — عن حروب الهلالية مع الدولة الفاطمية حينا ، والدولة الصنهاجية حينا آخر . ولكنه كان يعرض الوقائع من وجهة نظر هذه الدول النظامية ولا يرى فيها إلا أنها غارات مخربة تقوض أركان العمران وتقضى على مقومات الحضارة وتأتى على الأخضر واليابس وهى إذا شبهت بشىء ، فانما تشبه بغارات الجراد وما إليه من النوازل الطبيعية . ولكن السيرة تصور هذه المعارك

من وجهة نظر أخرى مغايرة لهذه ، فتعرضها حروبا نظامية كحروب الجيوش ، وأن اشترك فيها أفراد القبيلة جميعا . وهى تبدأ الصورة بما يسمى فى العرف الحديث بالتعبئة النفسية التى ينبغى أن تسبق التعبئة المادية ، فتسرف فى وصف الجدب لتستطيع أن تزحزح النفوس عن التربة التى أحبوا ، وتدفع بالعيون من خيرة أبنائها إلى الغاية التى تستهدف الجماعة لها ترود الطريق وتكشف عن المنافذ وتختبر المسالح وتتعرف إلى قوات العدو . ولا تكتفى بهذا بل توقع فتيان القبيلة الأوائل فى أسر ذلك العدو خلقا الذريعة التى تبرر قتاله فى نظر أنفسهم وفى نظر الناس ولا يختلف التحرك من موضع إلى موضع فى غزوتهم الكبرى عما تعودوا فى الهجرة الجماعية ، فكل شىء يتم طبقا للمقرر الثابت فى العرف الجماعى . وتسير هذه الكتائب وفقا للخطط التى يرسمها أمراء القبيلة . ولا تعتمد المعارك على كثرة الجماعة ولا على الشجاعة وحدها ، وإنما تعتمد كذلك على عنصرين آخرين هما إعمال الحيلة والطابور الخامس . فما من معركة تخلو من خدعة حربية . مثال ذلك ما توسل به أبو زيد قبيل التقاء الهلالية بخليفه الزناتى تهويلا لقوتهم واضعافا للروح المعنوية عند عدوهم ، فقد أرسل المنادى ينادى . « . . . كل من كان عنده ناقة والدة يبعد ابنها عنها أو فرس والدة يبعد ابنها عنها وكل من كان عنده حصان طلوق يجيبه عند فرس شايع ويلحقونا على عين الخطيرى . وتخلى العرب كلهم يدقوا طبولهم فى نزولهم على العين ، فيسمع الزناتى حنين المهارى وصهيل الخيل وحس الطبول فينكسر قلبه قبل ما يجى لنا الحرب [1] . . » وهو شبيه بما تصطنعه الجيوش الحديثة وقد فعل مثله المارشال اللنبى فى حملته الفلسطينية المشهورة فى الحرب العالمية الأولى [2] ، كما كانت الجماعة تصطنع نساءها وفتياتها الحسان الانيقات للجسس والتحايل وأعمال الطابور

(١) الدكتور فؤاد حسانين على . قصصنا الشعبى ص ٦٨

(٢) Col A' P. Wavell (المارشال) الحملات الحربية بفلسطين ، لندن ص ١٨٨

فى الأنساب التى أوردتها الرواية التاريخية قائم لفقدان القرائن التى تؤيدها أو تنفيها، وكذلك الحال فى الأنساب التى أوردتها الرواية الأدبية فى سيرة بنى هلال ، يكتنفها الشك من كل جانب ولكنها مع ذلك أدل على روح العصبية القبلية من كل رواية أخرى . فهى وإن جعلت هلالا ممن حضروا الدولة الاسلامية فى بداية نشأتها إلا أنها لم تشذ عن الناموس العام فى تسلسل الأجيال فى الجماعات المتبدية لما تتحضر. ذلك لأن الوحدة فى الأب ، إن دلت على أصل مشترك فانها لا تدل على مشخصات الفروع بقدر ما يدل عليها التفرق فى الأمومة ، فهم جميعاً من هلال ولكنهم فى الوقت نفسه من أمين مختلفتين هما هذباء وعذباء . ومطابقة هذا التخالف فى الأم للواقع ليس بذى خطر لأن المهم هو قيام هذا التخالف فى القبيل وأثره فى الأحداث الخاصة والعامة على السواء ، وقد احتاج بعض المعنيين بالتاريخ إلى النص على أن أحد هذه الفروع من هلال على التحقيق وليسوا من سليم [١] لأن رياحاً من مشاهير الآباء هنا وهناك .

أما السيرة الهلالية فلم تكن فى حاجة إلى شىء من هذا لأنها تمثلت فى الحلف العام جميع البطون ذات الأرومة الواحدة ، بل هضمت بعض البطون الخارجة على الأصل القيسي . ولم تدخر وسعا فى الرفع من شأن الجماعة بالانتساب إلى البيت الهاشمى حينا وإلى أقيال اليمن حينا آخر . ولكننا عند ما نتفحص صنيعها فى العصبية الخاصة بين مختلف وحداتها نرى أنها كثيراً ما تتحول إلى العصبية العامة القوية بين قيس الممثلين لعرب الشمال وحمير الممثلين لعرب الجنوب فتجعل أبا زيد قيسيا وتجعل دياب حميريا . وفى بعض النسخ تضاف حمير إلى نسب دياب [٢] . وهذا يدل على أن السيرة توسعت فى وظيفتها عند ما استقر الهلالية فى شمالى أفريقية وأخذوا يحاربون البربر

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦

(٢) Ahlwardt

الذين يردون نسبهم إلى حمير . وهذا النزاع القومى هو الذى دفع السيرة إلى التذبذب بين العنصرين الشمالى والجنوبى لاتكاد تغلب أحدهما حتى ترى نفسها مرغمة على إحلال الآخر محله . فرقمت من شأن دياب بعد أن جعلته حميريا وأرغمت الهلالية على أن يحنوا رؤسهم أمامه . ثم عادت فغلبت الهلالية عليه فى شخص بريقع بن حسن ابن سرحان ثم أتت مرة أخرى بنصر بن دياب فأمرته على تونس وأذلت له الهلالية . غير أن القومية البربرية لم تقنع بهذا التعديل فى الأنساب والعصبيات ورأته لا يلائم عواطفها كل الملاءمة فابتدعت شخصية جديدة أقوى تمثيلا لها وهى شخصية الأمير على الملقب بأبى الهيجات فوصلته بالهلالية ولكنها ألبسته الشعار الذى يفرق بين المغاربة والعرب . وكسته البرنس وحالت بينه وبين شال العمامة فبدأ بربريا مغربيا . وجعلت هذا الشعار هو العلامة المميزة له ولأنصاره جميعا . وتوسعت فى ذلك حتى أدخلت سكان شمالى أفريقية جميعا فى دعوته والظهور بشعاره والتنكب عن الزى العربى القديم . ولكن العصبية الهلالية التى حسب عليها هذا الأمير المتبربر تمكنت من الفصل بينه وبين أنصاره فلم تجعلهم هلاليين ، وإنما تركتهم وشأنهم دون أن تنسبهم .

والتاريخ مهما جهد لا يستطيع أن يبرز الصورة الهلالية بمشخصاتها على هذا الوجه ، وقد سبق أن علمنا من الأخبار المتناثرة هنا وهناك ، أن العربى بصفة عامة يحب فرسه وينشأ وإياها على تعاطف لا يكون إلا بين الأخوة والأقرباء ، ولكن أين هذا مما كررته سيرة بنى هلال فى كل أجزائها ودواوينها وجعلته شائعا بين فرسانها من لصوق الهلالى بفرسه التى تشير إلى غيبته الاجبارية عنها إذا عادت وحدها والتى يعز عليه أن يفارقها ، ولو كان فى مفارقتها نصر قبيلته ، كما حدث عند نزول الهلالية على الماضى ابن مقرب وطلب أعز ما عندهم « الجازية » أخت السلطان و « الخضرة » فرس دياب ابن غانم . بل إن مكان الفرس فى حومة القتال وفى قبيله ليتوقف أكثره على

فرسة ، وقد يكون بينهما من الحب أقوى مما بين الزوج وزوجه أو الأب وبنيه . ولاتظن أن ذلك مقصورا على الفارس دون الفرس ، فكثيراً ما يحدث أن يعتطيها غير صاحبها فما تزال به حتى تلقيه عنها . ولامبالغة فى القول أن ديبا لم يبك أحداً من بنيه كما بكى فرسه عند ما نفقت وظل يذكرها حتى إذا حضرته الوفاة كانت وصيته أن يدفن إلى جانبها فى المكان الذى اختارها .

والتاريخ الاجتماعى للقبائل العربية أيا كانت المصادر الذى يعتمد عليها الباحث ، يصعب عليه أن يفرق بين الجماعات المتبدية قبل الاسلام وبعده . ونحن نسلم بأن هذه القبائل قد حافظت على كثير من سننها وعاداتها التى يقوم بها جمعها الأبوى (البطرق) . ولكن مما لاشك فيه أن الاسلام عدل من هذا العرف فى كثير من نواحيه . وأصبح هذا العرف المعدل بالشرع الاسلامى هو الذى يضبط نظامها الاجتماعى . وسيرة بنى هلال تكمل ذلك التاريخ ، فقد استحدثت شخصية أضافتها إلى أمراء القبيلة ، هى شخصية « القاضى » وزاوجت بينها وبين البطرقية القبلية فجعلتها تقوم على وحدة جماعية كما يقوم سائر الأمراء ، وتمتاز بعصبية عددية كما يعتزون ، أو بعبارة أخرى كان القضاء وراثيا فى عشيرة بعينها كما هو الحال فى بعض البيئات الاسلامية إلى اليوم . ولكنك إذا قلبت النظر فى أحداث هذه الوحدة الجماعية الخاصة فيما يتصل بالوقائع والحروب وما أحرزت من نصر وما أصابت من غنم وما تعرضت له من خطر ، فانك لاتجد شيئا له قيمته يمكن أن يضاف إلى تراث القبيلة العامة . ولكن القاضى كان يقوم من القبيلة كلها مقام الناظر فى أعمالها من حيث مطابقتها للشرع الاسلامى ، يقر ما يوافقه ، ويرفض ما ينافيه . وكان يستشار كغيره ، ولكن مشورته الحقيقية إنما كانت فيما نعرفه اليوم بالأحوال الشخصية . وكانت القبيلة كلها تصدر فى تصرفاتها عن علم بالشرع الاسلامى . بصفة عامة .

وأن ما حفظته القبيلة الهلالية من أحداث سيرتها ليقوم منها مقام التاريخ القومى من الأمم الحديثة يحتفل بانتصاراتها ويسقط هزائمها . ولكن هذه الذاكرة على الرغم مما اصطنعته من جرس لفظى تستعين به على الحفظ ، لها طاقة محدودة لا تستطيع أن تتعداها بحال من الأحوال . وقد دفعها هذا إلى المحافظة على أسماء دون أسماء ، وإلى اقحام أسماء أخرى بدلا من التى نسيت أو تنوسيت ، وإلى حل بعض الأسماء من كنيتها وإلى أضافة أسماء إلى غير أصحابها مع عدم الحرص على التناسب فى المكان أو الزمان وأعمال التسلسل أيا كانت القاعدة التى يقوم عليها . ومن ثم كان من اليسير أن نفسر البواعث التى جعلت السيرة تأخذ اسما كؤنس بن يحيى الرياحى أمير الهلالية فى حرب صنهاجة فتجعله اسمين ، هما يحيى ، ويونس . وتركز الأحداث كلها وبخاصة التى دارت حول القيروان وتنقلها إلى مدينة تونس . وتحفظ الأسماء الجغرافية الكثيرة فى شمالى إفريقية دون أن تلاحظ العلاقات الوضعية بينها فذكرت طبرق (طبارق) وبرتيجة أو برتيقة (بنى غازى) وقابس وتوزر وسرت وفاس ومكناس وزواوه والقلعة وغيرها كثير .

كان هذا أيام كانت سيرة بنى هلال تقوم من الهلالية مقام التراث من كل قبيل فتى ، متجانس أو شبه متجانس . ولكن هؤلاء الهلالية انفرطت جموعهم المتبلورة وانتشروا مع البربر فى شمالى أفريقية بعد أن ساطوهم بدمائهم وبلغوا السودان الغربى ، ونفذت زمر منهم إلى الحبشة ونقلت زمر أخرى إلى الاقليم الشرقى من مصر . فنحن نقرأ أن قبائل الزيقات فى دارفور منهم ، وأنهم ينتسبون إلى رزق بن أبى زيد أو أبيه وقبيلة سليم نسبة إلى بنى سليم بدارفور أيضاً . وأن كثيرين من عرب مصر ينتسبون إليهم ، فالبواصل فى الفيوم[1] من سليم . والسمديين أو السعادى يزعمون أنهم من سعدى إبنة الجازية ، عرفوا بأنهم تميزا لهم عن بطون أخرى تختلف معهم

(١) ابراهيم رمزى بك . مقدمة البيان والاعراب للمقريزى ص ١٣

فى الأمومة وتشترك فى الأب . وهؤلاء ينتشرون بين برقة وإقليم البحيرة غربى النيل [١] . ومكن أولاد على أنفسهم فيما بين البحيرة والجبل الأخضر ، بعد أن غلبوا على القبائل التى كانت هناك وشاركوا فى الأحداث العامة واستغلهم محمد على باشا الكبير فى القضاء على فتن الأعراب المجاورين لهم وأعفاهم من الخدمة العسكرية مكافأة لهم . ونفذت جموع منهم إلى شمالى الدلتا . أضف إلى ذلك عرب الحوف الشرقى الذين استقروا فى هذا الاقليم قبل التغريبة ولم يرحلوا جميعاً إلى شمال إفريقية ومعظمهم ينتسبون إلى هلال . وفى الشرقية والصعيد الآن قرى تعرف باسمهم مثل قريتى بنى هلال [٢] وبنى قرة . وفى العدوة الشرقية جماعات لا تزال تنتسب إليهم كما كان الحال أيام المقريزى . ويذهب بعض المعنيين بالأبحاث اللسانية إلى أن هناك وحدة لغوية بين هؤلاء الأقوام ، « . . . وهنا تؤيد السيرة أبحاث المؤرخين ورجال اللغات السامية ، فهم يجمعون على أن لهجة صعيد مصر ، وعرب أولاد على غرب الاسكندرية ومالطة ، وشمالى إفريقية ، وأعالى النوبة ، وكردفان وجنوب الخرطوم ودارفور لهجة واحدة لها مميزاتها الخاصة التى تميزها عن سائر اللهجات العربية [٣] » . وليس من شك فى أن سيرة بنى هلال أفادت من روايات هذه الجماعات ، ولكنها أصبحت على الأيام أكبر من أن تقوم منها مقام التراث القبلى . ومن ثم تحولت عن وظيفتها الحيوية فى إذكاء عصبية بعينها إلى وظيفة أخرى فنية الطابع اقتضتها الملاءمة بين عناصرها التى تتألف منها وبين بيئتها الجديدة . وسنحاول مخلصين أن نحدد هذه الوظيفة وأن نتبين كيف تحولت هذه السيرة من تراث قبلى عربى إلى ذخيرة شعبية مصرية .

(١) القائمقام رفعت الجوهرى بك . أسرار الصحراء الغربية ص ٢٢٣

(٢) على باشا مبارك . الخطط التوفيقية ج ٩ ص ٩٨

(٣) الدكتور فؤاد حسنين . قصصنا الشعبى ص ٧٠

الباب الخامس

فى المجتمـــع المصرى

يرى الذين يتجاوزون النظر السطحى القديم إلى مصر وتاريخها ، أنها وإن ألمت بها حضارات مختلفة الأصول والموارد إلا أنها احتفظت فى جميع عصورها بطابعها الخاص المتميز بوحدتها المتماسكة ، فان الطبيعة قد هيأت لها بيئة متجانسة تفرض عليها التوحد والاستقرار منذ وجودها . وقد أصبح من الكلم المردد أنها صنيعة النيل وأنها منفصلة عن البيئات الأخرى بالبحر والصحراء . والذين يقسمون تاريخ مصر بالدول الوافدة عليها ، إنما يتحدثون عن هذه الدول ولا يلتفتون إلى مصر والمصريين ، فلم تنقلب هذه البيئة فى مخبرها ومظهرها بتقلب الممثلين أو الحكام ، وإنما تطورت تطورا متسعا يرتبط آخره بأبعده وينمى خصائص اكسبتها إياها السنن الطبيعية . فقد أتى الفرس واليونان والرومان والعرب والترك وظلت مصر هى هى ، أفئدتهم فى أطوائها ولم تفن فى جماعة منهم ، تحولت بالبشرية إلى الاستقرار الزراعى وما يستتبعه من التأمل الهادىء ، وأصبح المجتمع المصرى يتألف من طبقات يعلو بعضها فوق بعض كالمدرجات النيلية سواء بسواء . وتكافل هذه الطبقات لا يرث ، لأن المجتمع كله يعتمد على ما ينتجه الكادحون فى التربة الخصيبة من ثمرات . ولعل من أبرز الخصال التى تميز بها المصرى فى جميع العصور والأجيال ، هذا الشغف الفطرى بالقصص والقدرة البارعة على سرده .

والمتتبع لنماذج القصص المصرى فى مختلف العهود ، يلمح خصائص عامة مشتركة تجعل المصريين يتسمون فى هذا الفن بطابع خاص وليس من شك فى أن مصر كان لها

أدب قيم وإن اخملته الآثار المادية الشاخصة على كثرتها وتنوعها ، فقد وجدت القصة كضرب من ضروب الفن القولى ، قبل النقش على الحجر أو التسجيل فى البردى. وتدل أقدم النماذج التى وصلت إلينا على وجود تقاليد فنية للقصص عند المصريين . فثمة أساطير تعظم الأرباب والملوك ، وروايات دينية الطابع لأخبار الكهان والسحرة ، وحكايات لا غرض لها إلا تزجية الفراغ فى هذه البيئة الزراعية الوادعة . وكانت هذه التقاليد أوضح عندما انصرف الناس فى عهد الدولة الفرعونية الأخيرة عن اللغة الرسمية إلى لغتهم التى طوعها الاستعمال . ونحن نرى فيما أثر عن هذا الأدب غير الرسمى ، القصص الشعبية التى تتحدث عن مغامرات السفر فى البر والبحر ، وعن بطولة الحرب فى الهجوم والدفاع ، وعن أصحاب القدرات الخارقة والعلوم الخفية . ولقد وفدت الدول المختلفة على مصر ثم انصرفت عنها ونمت فى تربتها الخصيبة ، الحضارات وأورقت وآتت أكلها ثم صوحت وجفت . وهذه التقاليد القصصية فى موضعها من أطواء النفس المصرية الجامعة تجد سبيلها إلى الظهور فيما تذكر وفيما تردد . وربما أفاد الملحون بمصر من هذه التقاليد فعملوا على اقتباسها أو تحليتها أو تعديلها . ولكنهم عجزوا عن تغيير جوهرها

ولاخلاف فى أن الحضارة العربية الاسلامية التى مدت رواقها على مصر لم يأت بها الفاتحون من الجزيرة العربية ، ولم تنشأ فى العهد العربى الأول ، ولكنها تلقت روافد كثيرة من الحضارات السابقة ، وعلى الرغم من أن الأدب كان أقل تأثرا بهذه العناصر الحضرية القديمة ، إلا أن إشتراك المصريين المستعربين فى الحياة الثقافية اشتراكا إيجابيا نوع فى الأغراض وحور فى القوالب وأفاد من الروايات الشعبية الشائعة وجعل من القصص مادة أدبية رائجة . وإذا كان التاريخ المصرى القديم قد أصبح مستغلقا على الناس لتقادم العهد عليه وتغير اللغات وضياع مدلولات الرموز والنقوش ، فان الاخباريين المصريين فى العهود العربية استلهموا الآثار فى حكاية

العجائب والغرائب المتصلة ببناء هذه الهياكل والينا وأغلب الظن أنهم استأنسوا بالمصادر القبطية والأدب القبطى . وسرعان ما دفع الأقبال على القصص ، إلى اقتحام موضوعات عربية إسلامية كسير الفرسان والقادة والأولياء . ولا تلتمس نماذج هذا القصص فى الأدب الرسمى الذى يعيش فى بلاط الأمارة العربية أو المستعربة ، أو فى المعاهد التى يختلف إليها طلاب العلم ، وإنما تلتمس فى آداب الأوساط والعوام .

وقد استطاع نولدكه Noldeke ومكدونالد Macdonald وأويسترب Oustrup [١] وغيرهم من المستشرقين أن يتبينوا التقاليد القصصية المصرية فى حكايات بعينها من ألف ليلة وليلة . ومن هذه التقاليد حكايات الصعاليك والعياق وقطاع الطريق التى يدل الاهتمام بها على موقف معين من السلطان وحكايات السحر وما يسبغه من القدرة الخارقة على طى الزمان والمكان وحكايات الطلسمات والأماكن المرصودة التى تشير إلى المعابد القديمة وما اكتنفها طوال العصور من غموض . وكان من اليسير علينا عند ما عكفنا على سيرة الظاهر بيبرس المتجانسة العبارة [٢] أن نتبين الطبقة المصرية بخصائصها الواضحة بين الطبقتين الشامية والمغربية لما يشيع فيها من التسليم بالخوارق والشغف بالسحر والاهتمام بالخارجين على النظام .

وتعد سيرة بنى هلال من أروع القصص فى هذه البيئة المغايرة لبيئتها الأولى التى أنشأتها . فما الذى مكن لها من الحياة فى هذا المحيط الجديد ؟ .. وبديهى أن المصريين ينتخبون من مئات الوقائع والأخبار والقصص ما يلائم مزاجهم ويعمل الزمن من ناحيته على تصفية هذه المنتخبات فيأخذ منها ويضيف إليها وقد رأينا أن سيرة بنى هلال ما إن انتقلت إلى المصريين حتى تشبثوا بها وتشبثت بهم . ولم يكن ذلك عن اتصال وقائعها بتاريخهم فحسب ، ولا عن مشاركة عنصرية بين المنشئين الأول لها ، وتلك

(١) اريسترب ، دائرة المعارف الاسلامية ، مادة ألف ليلة وليلة . الترجمة العربية ج ١ ص ٢٤ .
(٢) كانت هذه السطور ، سيرة الظاهر بيبرس ، مخطوط .

الجماعات المتفرقة لما يتم تحولها إلى الاستقرار الزراعى ، والتى تزعم لنفسها حقيقة أو استهواء أنها من نسلهم . فلابد وأن تكون هناك إذن صفة عامة فى هذه السيرة اجتذبت المصريين إليها . فما هى هذه الصفة التى تساير ما أثر عن المصريين من تقاليد قصصية . . . ما تظن أنها كانت مجرد الإعجاب بفرسان بنى هلال وما ينطوى عليه من عبادة البطولة والأبطال . ولا كانت تفسيرا عاميا للعجائب والغرائب التى ترتفع عن الطاقة البشرية وتكاف بما فوق الطبيعة من المعجزات والخوارق . ولا كانت ماأحاط بالآثار والعاديات من ظلال وأخيلة ، وإن كنا نجد هذه العناصر كلها فى السيرة التى بين أيدينا . ولكنها لم تكن الأصول التى قامت بها والتى كانت السبب فى إقبال المصريين عليها .

لقد تسلمت هذه البيئة المصرية سيرة بنى هلال وغيرها من السير ، بعد العصر الفاطمى ، أو بعبارة أوضح ، بعد أن أصبح السلطان فى يد غير العرب . ولهذا دلالته على تلك الخصيصة العامة التى نريد أن نتبينها ، فان الشعب المصرى وقد تم استعرابه وإسلامه ، أصبح يقف من الدول الحاكمة موقف الشاعر بذاتيته ، المحتاج فى الوقت نفسه إلى التعبير عن هذه الذاتية . فدفعه ذلك إلى انتخاب أحداث بعينها تصلح للترجمة عن مشاعره القومية وهى كما نعلم ملونة بالمروية فاهتدى إلى عنترة وإلى سيف ابن ذى يزن والزير سالم وإلى بنى هلال . وهذا يدل على أن القومية المصرية ذات الطابع العربى لم يكن يعنيها التفريق بين عدنانية وقحطانية ، بقدر ما تعنيها الصفة العربية العامة . بل أن هذا الشعور القومى كان يطبع العناصر غير العربية بطابعه كما فعل مع الظاهر بيبرس ، إذ انتزعه من الجركس ووصله بالعرب . وعلى هذا فالخصيصة الأولى التى أعانت على تمصير السيرة الهلالية ، هى انتصار عروبتها . وهى إذا ووزنت بأضرابها فى هذا المجال رجحت عليها ، لأن روح الجماعة فيها أبرز منه فى غيرها .

وأصحاب علم النفس يقولون أن ظهور المنشدين الجوالين فى بيئة من البيئات ، أن دل على شيء فانما يدل على الوعى القومى ورواج بضاعتهم وإقبال الناس عليها شارة على قوة هذا الوعى . وهم يوازنون بين الملكة الجمالية عند الفرد وبينها عند الجماعة . ويذهبون إلى أن الفرد تنمو فيه هذه الملكة بنمو ذاتيته ، وهى تقوى كلما عمل على تغذيتها . وما تزال كذلك حتى تغلب على سائر ملكاته ويصبح متخصصا فى التعبير عن الشعور . وكذلك الحال فى الجماعة باعتبارها كائنا واحدا له مقومات متجانسة ، يقوى فيها الشعور بالذاتية كلما تكتلت عناصرها . وهى تدأب على الترجمة عن هذا الشعور إلى أن تصقل موهبتها الجمالية وتنكشف عن طائفة من المتفننين بضروب القول ، يتفوقون على مواطنيهم فى التعبير عن الذاتية الجماعية بما ينتخبون من صور وأمثال[1] وكانت سيرة بنى هلال مما وقع عليه اختيارهم ولا يغرنك مايبدو على المنشدين المحترفين فى أيامنا من جنوح إلى الصنعة وانصراف إلى التكسب ، جعل ما يذيعونه أدنى إلى الترديد الآلى والتكرار الدقيق ، لأن الأصل فيهم هو الانتخاب والتطور بتطور الجماعة . وما من شك فى أن هذه السيرة قد انطبعت فى نفوسهم انطباعات تختلف باختلاف عصورهم وبيئاتهم الخاصة ، وأن احتفظت بالطابع القومى العام الذى يسم جميع الآثار الجماعية بميسمه .

ولا بد لنا أن نسلم بأن بقاء الخطوط البارزة فى السيرة الهلالية على حالها ، إنما يعنى مسايرة هذه الخطوط للروح القومى المصرى من ناحية ، ولفلسفة الحياة التى درج عليها المصريون فى جميع عصورهم من ناحية ثانية ، وملاءمتها للتقاليد القصصية المتوارثة فى هذه البيئة من ناحية ثالثة . وقد هدانا اختلافنا بين الحضر والريف وتقلبنا بين طبقات المجتمع إلى إدراك أن هذه السيرة كانت الغذاء الفنى

(١) The Group Mind : William Medougall ص ١٥٧ كمبردج ١٩٢٩

للمجتمع المصرى بأسره على اختلاف درجاته ومنازعه وأنها ظلت كذلك إلى جيلنا. فان كثيرين من المتعلمين لا يزالون يذكرون هذه السيرة التى استمعوا إليها فى مطلع حياتهم ومنهم من عكف على قراءتها وحفظها كلها أو جلها . ولكن النهضة الأخيرة التى احتفظت بالتدوين وآثرت الأدب الرسمى على غيره ، ورفعت الحواجز التى كانت تفصل بين العقلية المصرية وغيرها ، دفعت بسيرة بنى هلال فأجلتها عن طوائف المتعلمين وقصرتها على تغذية طبقات أهل الريف والطبقات الدنيا فى الحواضر ، وسنلاحظ تفاعل هذه السيرة فى المجتمع القاهرى بخاصة .

ويبلغ الروح القومى المصرى أوجه فى هذا الجزء من السيرة الذى يتحدث عن صلة العرب الهلالية بالمصريين وهو المعروف بـ « ديوان مصر » ، ذلك أن الذاتية المصرية لم ترض الاندماج فى العرب ، وفرقت بين المصريين وبين الهلالية ، وأخذت تكيل المدح للأولين إظهاراً لاستقلالها ، وتكيله للآخرين انتقاداً لبعض سلوكها . ونحن نرى فى هذا الجزء كيف غلب العرب على صاحب مصر وسجنوا وزيره التركى فخافهم أبناء البلاد وأوصدوا فى وجوههم دورهم وأحياءهم وأغلقوا مقاجرهم وامتنعوا عن البيع والشراء . ولم ير العرب بداً من تأمين المصريين على أنفسهم وأموالهم ولكن هؤلاء لم يعودوا إلى أعمالهم إلا بعد أن لمسوا بأيديهم زهد العرب فى أموالهم . وكان من الطبيعى أن يحكم الهلالية الديار المصرية ، بل إن من أمرائهم من طمع فى الاستئثار بها مثل دياب بن غانم . ولكن السيرة ترغب عن هذا وترده إلى أن العرب « لا يملأون أعين المصريين » فعلى الرغم من إجماع التجار وأصحاب الأعمال والصوفية ورجال الدين وفى مقدمتهم شيخ الجامع الأزهر على مبايعة العرب بحكومة مصر ، فان هؤلاء العرب لا يستجيبون لهذه الارادة العامة وهم يعلمون أن الحكم تفويض إلهى وأن التفوق فى الشجاعة وحده لا يبلغ بصاحبه السلطان وأن الله يسبغ صفة الحكم وهيبته على من يشاء وأن أمره نافذ وإن كان فى أتباعه من هو أقوى

منه شكيمة وأقدر على المجالدة . وما أبرزته السيرة الهلالية فى هذا الجزء من بيعة إجماعية أو تمثيلية يدل على وجود الوعى القومى عند المصريين ونزوعه إلى الاستقلال ، وإن كان الحكم فى غير أيديهم ، كما أن هذا الوعى اتخذ فى التعبير عنه صوراً شتى أقل من تلك نصاعة ، وهى تصطبغ بالعقائد المصرية الثابتة على مر العصور ، وهى أن مصر محروسة من عدوها يحيق به السوء إن أرادها به . ويقوم على حمايتها « الأقطاب » الموكلون بالأرض . وهذه هى العقيدة نفسها التى كانت موجودة فى أيام الفراعنة لم يتغير منها إلا الشكل والتى لا تزال موجودة إلى الآن . أما الصفات الأخرى التى أوردتها السيرة فى هذا الجزء ، فهى خصال وردت فى معرض نقد المجتمع المصرى لنفسه فقد استغلت السيرة الموازنة بين العرب الهلالية والمصريين أحسن استغلال ، فبعد أن أظهرت الذاتية المصرية قوية واضحة لا تقبل الفناء حتى فى العرب المتغلبين دفعتها الرغبة فى التكامل إلى النقد . وبدأت بشيوع الفكاهة بين أهل مصر وجنوحهم إلى السخر من كل شىء فهم لا يأخذون شخصاً أو عملا مأخذ الجد ولم تحاول أن تعلل هذه الصفة واكتفت بتسجيلها والاعتراف بها . وكشفت عن احتفال المصريين بالموت ومراسيمه والانفاق فى شئونه أكثر مما ينفق على أغراض الحياة ، وهى ملاحظة دقيقة وجديرة بانعام النظر وإن عرضتها السيرة عرضاً ثانوياً عابرا .

أما ما أسبغته السيرة على الهلالية من تبجيل لرجال الدين جعلهم يجلسون شيخ الأزهر على كرسى السلطنة فى قلعة الجبل والوقوف بين يديه والامتثال لأوامره وإن كانوا هم الفاتحين لهم الكلمة بحق الغلب ، فانه يدل على تغلغل الدين فى نفوس المصريين على الرغم من شيوع المزاح فيهم ، كما أن المرأة المصرية فى الطبقة العليا ظهرت فى هذا الموضع بصورة مخالفة للمرأة العربية واتخذت الحجاب الذى كان السمة الشائعة بين نساء مصر إلى عهد قريب جداً والذى لاتزال بقية منه فى البيئات

الريفية وتبدو القاهرة بأحيائها وخططها ومعالمها كما كانت قبل النهضة الأخيرة وكما وصفها إدوارد لين[1] . وهى عبارة عن أسواق تتألف من طرقات مكتظة بالناس على جانبيها دكاكين التجار وفوق هذه الدكاكين مساكن يستأجرها ناس لاصلة لهم بتلك الدكاكين وكانت قصبة الحكم فى قلعة الجبل والأسوار فى الأماكن التى تشير إليها آثارها والأبواب فى مواضعها ، ولا يمكن أن تتخذ هذه المعالم وغيرها مما ذكرته السيرة فى هذا الجزء وسيلة إلى تاريخها لأنها تتطور بتطورها وليست فى الواقع سوى أزياء خارجية لها . ويجوز قبل أن نترك هذا الجزء الذى يتحدث عن مصر حديثا مباشراً ، أن نلاحظ خصلتين لهما خطرهما فى حياة السيرة . أولاهما ، عصبية مماثلة للعصبية القبلية تحكم بسكان أقليم من الديار المصرية دون غيرهم ، كما جاء على لسان أبى زيد ودياب وهما يصفان أهل الصعيد قبيل ارتحالهما إلى بلاد المغرب فان هذا التحكم إن وجد فى بيئة ، فانه لا يوجد فى بيئة أخرى . ذلك أن المنشد لا يستطيع أن يبسط القول فيه وهو يقص السيرة على أبناء ذلك الأقليم فيضطر إلى حذفه أو تعديله أو التخفف منه . ثانيتهما ، ما نلمحه من تفضيل طائفة مصرية على طائفة أخرى ، كما ذكر عند مشاهدة أبى زيد ودياب لمعالم القاهرة والموازنة بين التجار وأهل البلد . فان هذا الايثار بالمديح عرضة بدوره إلى الطىّ وفقا للمجتمع الخاص الذى تنشد السيرة فيه .

وسيرة بنى هلال وإن احتفظت بالباعث الأول على النقلة والاستحالة وهو الجدب أو القحط ، فان جميع حوادثها بلا استثناء تدور على وتيرة واحدة اقتضتها نظرة خاصة إلى الحياة فان عنصر التغير فى الحوادث يأتيها من خارجها ومن خارج الأشخاص الذين يشاركون فيها ومعنى هذا أن الارادة البشرية فى السيرة مقيدة بارادة أقوى منها

(١) Lane المصدر المذكور ج ١ ص ٤ وما بعدها .

تدفعها إلى العمل وتتخير لها نوعه والوقت الصالح له كما تهيء الشخص المتأهل للقيام به . فما من واقعة إلا وكان ختامها معروفا منذ اللحظة الأولى . وكل شخص أيا كانت قدرته أو مكانته يعرف مصيره المحتوم قبل أن يحل به ، وهو لا يستطيع أن يدفعه بحال من الأحوال ، وقصاراه أن يؤخره إلى أجل مسمى . وقد اصطنعت السيرة للإبانة عن هذه النظرة الخاصة طريقة واحدة لا تكاد تتغير إلا فى المظهر الخارجى ، فجعلت الأبطال يقرأون الغيب فى الرمل أو فى النجوم ، كما هو الشأن مع أبى زيد والنعمان أحد ملوك العجم وصاحب قيرص ووزرائه وأتباعه ورهبانه وخليفة الزناتى والعلام وزيره وسعدى أبنته رمى خادمتها ويرون ما سوف يقع لهم ولقومهم فى الأحلام . وأبرز مثال لذلك ، أحلام شيحه ، أخت السلطان حسن بن سرحان وهى التى عرف بها ديوان من أكبر دواوين السيرة[1] . ومن ثم فليست فى السيرة عقدة بالمصطلح الحديث تدور عليها حوادثها وتتطور بتطورها حتى تصل إلى غايتها ثم تأخذ فى الانفراج . وإنما هناك حركة متوازنة ، المد والجزر فيها متعاقبان لمجرد تأخير النهاية المعروفة ، وهذا هو عنصر التشويق الوحيد . أضف إلى ذلك تسليم الأفراد والجماعات لما يحيق بهم وعدم الثورة عليه ، لا للرضى به ولكن لأنهم يعلمون أن كل شيء لابد وأن يصيبه التغير وأن كل دولة صائرة إلى نهاية . بل أن بعض الحوادث لتتوسع فى ذلك وتذكر صراحة الزمن الذى سوف تستغرقه لا تزيد عليه ولا تنقص ، كما وقع للهلالية فى أول هذه السيرة عند ما أصابهم القحط ببلادهم السرو وعبادة فدفعهم إلى النقلة إلى نجد . وكما جرى لهم فى ختامها عند ما استبد بهم دياب بن غانم ورجاله من زغبة ورياح ، فقد ذكرت السيرة فى مقدمة الحادثتين أن فترة كل منهما سبع سنين . وليس شك فى أنها استعارت هذه الفترة من القرآن الكريم[2] .

(١) يعرف هذا الديوان بـ « مقامات الملكة شيحة الكبرى » .

(٢) سورة يوسف .

كما أنها تحدد العدد فى الأفراد والجموع بمضاعفات الرقم تسعة ، فتذكر أن خليفة الزناتى قتل من أمراء الهلالية تسعين فارسا ، وأن جيش الهلالية كان « أربع تسعينات ألوف » وهكذا . والرقم « تسعة » كما هو معروف من الأرقام المستقرة فى أخلاد المصريين منذ عهد جد قديم . ورسم الحوادث فى السيرة على هذه الصورة بلا شذوذ أو استثناء يقطع بأن العقلية المصرية غيبية لا تؤثر التعليل ، تؤمن بالقدر وتستسلم له وترجو التغير أو الانقلاب عن طريقه .

وإذا كانت البيئة المصرية قد احتفظت لأشخاص هذه السيرة بأسمائهم وكناهم وبعض ملامحهم ، فانها مصرتهم . وقد مر بنا أن الاحتفاظ بأزيائهم العربية سمة من سمات الشعور بالذاتية المصرية المستعربة المغايرة للترك ومن لف لفهم من الحكام . وأنت تجد التنويع فى الأشخاص يلائم الحضارة أكثر مما يلائم البداوة فقد ارتقى المصريون بشيوخ القبيلة إلى رؤساء الدولة وجعلوا الأمير ملكا قواما على شئون الدنيا ، والقاضى رئيساً روحانياً قواما على شئون الدين ، والفارس قائداً قواما على شئون الحرب . وطوروا العصبية القبلية العامة إلى عصبية وطنية ، والنزاع القبلى الخاص إلى ما يشبه النزاع السياسى الداخلى فى حكومة منتظمة ، ولم يكسبوا بهذا الصنيع ، أشخاص السيرة المقومات الفردية المستقلة لكل منهم ، وإنما زادوا فى التعميم حتى ارتفعوا بالنماذج الدالة على المجتمع القبلى إلى نماذج معنوية فى المجتمع الحضرى . ولكن المصريين وإن عاشوا فى أبطالهم هؤلاء ، إلا أنهم لم يستطيعوا تحليل شخصياتهم وتجسيم توازعهم ، وإنما جنحوا إلى الوصف الخارجى ، واكتفوا ببعض الخصال البارزة لتكون بمثابة العلامات المميزة لهؤلاء الأبطال . ويتحرك كل منهم فى فلكه المقدور بحيث لا يخرج على تلك الخصال . وهى وحدها التى تفرقه عن غيره ، أما ما عداها فصفات مشتركة تجعل آحاد السيرة جميعاً سواسية فى التصرف والسلوك . ولعل الانصراف عن التحليل إلى الوصف مرجعه أن

الناس يتلقون هذه السيرة عن طريق الاستماع أكثر مما يتلقونها عن طريق البصر ، ولا تستطيع الأذن أن تتابع النزعات المتضادة أو المتضاربة أو المتشابكة ، وقصاراها أن تلم بخلائق النفوس ممثلة فى الامارات المصاحبة لها أو الأعمال الصادرة عنها . كما أن المستمع فى جماعة عاجز عن التأمل وما يقتضيه من الهدوء والانفراد .

ونحن نبدأ بالحسن بن سرحان ، لا لأنه أعظم الأبطال فى سيرة بنى هلال وأسيرهم على ألسنة المنشدين والمتلقين ، ولكن لأن رتبته فى المجتمع فوق الجميع ، وقد كان المفروض أنه أمير من الأمراء الهلالية ، وأن قدم على غيره ، ولكن المصريين لم يكتفوا بهذه الإمارة فى قبيلة ، فأسبغوا عليه صفات الملك كما تمثلوها فى محيطهم ، فلقبوه بالسلطان أو ملك العرب أو ملك الملوك . وهو مع اعتزازه بمكانته فى قومه وغيرته عليها وتشبثه بها ، لا يستطيع أن يبرم أمراً من الأمور المتصلة برعيته إلا إذا استشار أكابرهم الذين يقومون منه مقام الوزراء يسدون إليه النصح ويقومون فى الوقت نفسه بتنفيذ ما يستقر عليه رأى الجماعة . وهذا يفسر ، ولو بطريق غير مباشر مثل المصريين فى الحكم وما انطوت عليه نفوسهم من تفضيل الشورى على الحكم المطلق ، فلم يؤثر عن الحسن بن سرحان أن تحيف فى أحكامه أو سلم أحداً من رعيته أو استبد بالأمر دونهم . وإذا كان قد اضطر إلى حبس دياب بن غانم ، فان ذلك لم يكن عن انتقام شخصى أو قومى ، وإنما كان فى سبيل المحافظة على الصالح العام ، لأن دياباً أراد أن يستأثر لنفسه بالغنم كله فى تونس . وهكذا يتحول النضال الذى أملته العصبية القبلية القديمة بين الحسن ودياب ، إلى نضال من نوع آخر بين ملك وقيل ثائر عليه . وكان مما يستتبع هذا الملك فى نظر المصريين أن يكون صاحبه كريما . وقد بالغوا فى إسباغ هذه الخصلة عليه حتى جعلوه يعطى دائماً ولا يأخذ أبداً ، يعطى المحتاج وغير المحتاج على السواء ، يعطى والقحط

يكتنفه كما يكتنف غيره ، يعطى فى صرف يخرجه عن التعقل فى كثير من الأحيان .
أما الخصلة الأساسية الثالثة ، فهى العفو عند القدرة عليه ، وهى تساير العدل الذى عرف به ، والرحمة التى غلبت عليه . ونحن نراه فى التغريبة يعفو عن أبناء الملوك الذين حاربوا الهلالية ويملكهم فى مكان آبائهم ويبسط عليهم حمايته كما أنه كان يعفو دائما عن دياب على الرغم من اضطغانه وحقده ، حتى أدى به ذلك إلى حتفه . وأبعد المصريون عن الجو القبلى وأحاطوه بهالة من الاجلال وأسبغوا عليه من الوقار والاحتشام والحسن فى الهيئة والسمت ما يجدر بالملوك وما لا يخرجه عن الديموقراطية التى خلعوها عليه . ولكى يكسبوه الصفة الواقعية زعموا أنه هو الذى شيد فى القاهرة المسجد المعروف بمسجد السلطان حسن . ولم يدفعهم إلى ذلك مجرد التشابه فى التسمية فحسب وما يستتبعه من لبس ، وإنما دفعهم اليه أيضاً أن هذا المسجد من آيات العمارة الدالة على السرف والبذخ . ونحن نعلم أن صاحبه الذى سمى به هو الملك الناصر حسن ، أقامه عام ٧٥٧ هجرية [1] .

وأصبحت هذه الشخصية على الأيام من المثل المصرية المشهورة يكنون بها كل فرد يجتمع إلى الكرم المسرف حسن السمت والهندام ، ويقولون عنه «عامل أبو على» والمنشدون المحترفون يستغلون هذه الخصلة ويبالغون فى وصفها استمطاراً للمستمعين واستدراراً لعطفهم .

وأبو زيد هو أهم بطل فى السيرة الهلالية وهو المحور الذى تدور عليه جميع الحوادث تقريبا حتى لتعرف به ، وتكاد تكون قصته وحده وكل من عداه سائر فى فلكه أو منازل له ، وهو الوحيد الذى فصلت السيرة حياته منذ ولد إلى أن مات والمقدمة الأولى فيها توطئة للحديث عنه ، والخاتمة الأخيرة متفرعة منه . وقد مر بنا أن ولادته إنما كانت دعوة مجابة لأمه . وأنه خرج إلى الدنيا مميز الصورة بلونه

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ص ٦٩

الأسود ، مما جعله يشتهر بين الناس « بالأسمر » وليس شك فى أن هذه الصفة الخاصة وجدت إقبالا من بعض المصريين الذين يصدرون فى تصرفاتهم وأعمالهم عن مثل هذه العقدة اللونية . واعتراف السيرة بها وتأثيرها فى صدر حياة أبى زيد له صداه النفسى فى ذلك المجتمع المصرى الخاص ولكن المصريين بصفة عامة وأن احتفظوا فى المناداة عليه بهذه السمة المميزة ، إلا أنهم لم يحرصوا عليها بعد أن بوأوه مكانه المرموق وجسموا صورته حتى كادوا يخلعون بها صورة الحسن بن سرحان صاحب الرئاسة المعنوية على الجميع ، وأدى بهم ذلك إلى أن يجعلوه صاحب مشورة السلطان ، والكلمة النافذة عنده ، لايصدر أمره ولايقوم بعمل إلا إذا أقره عليه أبو زيد . وساعدهم على ذلك أواصر القربى بين حبيبها من دريد وجعفر . وبلغ هذا التجسيم حداً أصبح به أبو زيد هو الحاكم الفعلى على الهلالية وإن خرجت المراسيم والمكاتبات والأوامر عن الحسن ومن ديوانه . إلا أن ذلك لم يمنع أبا زيد من الاستئناس بآراء غيره من الأمراء والاشتراك معهم فى الديوان وإن كان أبرزهم . وترتكز بطولته على دعامتين اثنتين أولاهما الشجاعة ، وهى كما نعلم صفة شائعة بين أبطال السيرة جميعا ، ولكن أبا زيد يبرز عليهم فيها بحيث يفقد التناسب بينه وبينهم ولم يبتكر المصريون هذه الخصلة له ، ولكنهم بالغوا فيها حتى أخرجوها عن الممكن وتجاوزوا بها الطاقة البشرية وكادوا يسلكونها مع الخوارق ، فهو كغيره فارس يجيد الركوب والكر والفر والمنازلة واستعمال السلاح كالسيف والرمح ، ولكنه كفاء جيش بأسره ، إذا صرخ ارتعدت له الفرائص تسبقه شهرته وتؤثر فى منازله ، تجندل الضربة الواحدة من سيفه العدد الذى لايحصى من عدوه . ويقذف برمحه إلى مدى لايبلغه البصر . ولما كانت السيرة تقوم بالمد والجزر فى الحوادث ، فمن المنطق المسايرلها ألا تصبح حياة أبى زيد انتصارا كلها وإلا فقدت أهم عناصرها القصصية ومن ثم فنحن نراه يهزم فى بعض الأحيان ولا يستطيع حماية ذماره كما حدث عند التقائه بملوك العجم

الذين استطاعوا أن يتغلبوا عليه ويخطفوا منه ابنة القاضى بدير بن فايد مما دفع الأمراء إلى لومه . فتراه وقد حيل بينه وبين النصر لأنه مقدر على غيره كما هو الحال فى منازلة خليفة الزناتى الذى كتب عليه أن يموت بطعنة من دياب بن غانم . وقد كان يعتمد فى الحالين على الخصلة الثانية التى ترتكز عليها شخصيته وهى الحيلة . وأهّله المصريون لها بأن علموه مختلف العلوم والفنون واللغات . فهو يستطيع أن يتنكر فى أى زى وأن يحترف أى مهنة وأن يتحدث بأى لغة . واسقطوا من حسابهم تلك الصفة اللونية المميزة عن غفلة أو نسيان ، إذ ليس من المعقول أن يتنكر فى زى رهبان الروم فى قبرص مثلا ، أو أن يتخذ — وهو الفارس الذى تغمره الوجولة — مظهر المرأة كما بدا بين جمع الجارية عند أبواب تونس . وقد ألبسه المصريون شخصيات الطبيب والراهب والنديم والمهرج والمرأة ، بيد أن أهم شخصيتين كان يلذ لهم أن يصوروه بصورتهما ، هما العبد لملاءمتها له فى اللون والسحنة ، والشاعر الجوال لاتفاقها مع شخصية المنشد نفسه . وخلط المصريون فى هذه الناحية بين أبى زيد وأهم شخصية تتسم بالتنكر والحيلة فى الأدب الشعبى وهى شخصية « جمال الدين شيحة » فى سيرة الظاهر بيبرس[1] الذى يضرب به المثل فى الألاعيب والقدرة الخارقة على التنكر واستعاروا منه الوسيلتين اللتين كان يصطنعهما وهما « جراب الحيل » الحاوى لمختلف الأزياء والأشكال والوجوه والشعور واللحى والشوارب المستعارة ، و « البنج » الذى كان يتوسل به إلى التخلص من إرادة غريمه بتخديره والتسلط عليه واستباق حوائجه وأمواله . وخلعاهما على أبى زيد . وأخذ المصريون يتمثلون بهذه الشخصية وجمعوا بين الخصلتين فى قولهم « سكة أبو زيد كلها مسالك » لأنه كان يتوسل إلى غايته بالشجاعة الخارقة والحيلة البارعة معا . كما أنهم لخصوا جهوده التى كللت بتغلب الهلالية على تونس وفتح القلاع الأربعة عشر ثم استئثار دياب بن غانم بالأمر دونه ودون

(١) كاتب هذه السطور « سيرة الظاهر بيبرس » الفصل الخاص بالشخصيات (مخطوط) .

السلطان حسن فقالوا للأمر يبذل فى سبيله الجهد ولايبلغ صاحبه الغاية التى يريد « كأنك يا أبو زيد ما غزيت » .

وتأتى شخصية ديباب بن غانم بعد أبى زيد مباشرة ، ومع هذا فان السيرة لم تولها من عنايتها ما أولت قرينه ، وأثرت المنافسة بينه وبين أبى زيد والسلطان حسن إلى إعطائه صورة مغايرة لها . فلم تخلع عليه وقار الملك ولاحسن هيبته ولم تمنحه ذكاء الفارس الكيس ، ومهدت لمولده بحادثة ظريفة ذات دلالة خاصة ، وهى أن أباه غانما كان رجلا مزواجا وإن ظل أبتر زمانا ، ثم بنى بأم ديباب وكانت امرأة دميمة شوهاء ، لها ناب بارز قبيح كناب الحيوان ينفر منه كل من يراه ، فدعاها ذلك إلى التحجب والانزواء ، وأقبل غانم عليها رجاء الانجاب منها دون زوجاته الجميلات العقيمات وتحقق أمله وولدت له ديابا فصبر على عشرتها أربعين عاما سويا اعتزازا بابنه الذى يحفظ له اسمه ومكانته .

ومن الخير أن نذكر هنا أن الابن وأباه كثيراً ما كانا يختلفان فيعمد الأب إلى أم ديباب ويرفع عن وجهها النقاب وهو يردد أنه صبر على هذه الدمامة أربعين حولا من أجله فلا يرى ديباب مناصاً من الاذعان وترجع أهميته فى السيرة إلى أنه الرجل الذى قدر له دون سواه أن يصرع خليفة الزناتى صاحب تونس أكبر خصوم الهلالية على الاطلاق . ولعل هذه الشخصية مع ما لها من الأثر الحاسم فى مجريات الحوادث ، أقرب الشخصيات إلى الواقع ، وأكثرها احتفاظاً بطابع الفروسية ، فقد رسم مقداما صبوراً على الحرب والنزال ، ثابتاً جلداً بارعا فى المبارزة ، منتصراً فى كل حومة ينزل إليها . ولكنه لم يكن كأبى زيد صاحب كيد وحيلة ، إلى ما اتصف به من الأنانية وحب الاستئثار بالمغانم والنزوع إلى التسلط مما دفع بالهلالية إلى أن يؤخروا مكانته ، وأن يكلوا إليه حماية البوش ورعاية الأنعام ، وأن يغلوه ويسجنوه سبع سنين لأنه أراد أن يحتكر النصر لنفسه وأن يتسلطن

على تونس دون أن يكترث بالحسن أو بأبي زيد أو سواهما من الأمراء . وهو الذى أراد قبل ذلك أن يجلس على عرش مصر وأن يصبح عزيزها وأن يستولى على كنوزها ولولا ما ظهر له من حراسة « الأقطاب » لها وعدم احترام أهليها له ، لتم له ذلك . وأدت المنافسة بينه وبين الحسن بن سرحان إلى لون من الموازنة جعلهما يتناقضان ، فاذا كان الحسن كريماً معطاءا ، فلا بد وأن يكون دياب شحيحاً مغتصبا ، وإذا كان الحسن سمح النفس يعفو عنه المقدرة ويطلق سراح دياب كلما شفع له أبو زيد ، فان دياباً يجب أن يكون صاحب غدر فقد اغتال الحسن على فراشه ووثب بأبي زيد وهو يلعب معه . وصوره المصريون تياهاً بنفسه ، مغروراً بشجاعته ، متهوراً فى إقدامه ، ضيق العطن عصبى المزاج ، والراجح أنهم استعاروا هذه الصورة من المحيط المغربى ، واتخذوها مثلا على هذه الخلال . فهم يقولون لكل نافذ الصبر « هو انت زغبى ؟ » نسبة إلى زغبة قبيلة دياب . وهو على شموسه وخيانته لأقرانه واستئثاره بالخير دون الناس جميعاً ، كان محباً لرحه وفياً لفرسه . ولم يرض المصريون أن ينفرد بالانتصار على خليفة الزناتى كما قدر له فأقحموا معه الرجل الذى أحبوا ، وهو أبو زيد يعينه بحيلته ، حتى أن دياباً وهو يضرب منازله العنيد الضربة القاضية كان أبو زيد يسمم جراحه ليجهز عليه .

ولن نجد فى المعسكر الهلالى من الرجال من ينازع هؤلاء الثلاثة فى التخصص والبروز ، على الرغم من الاعتماد على الملاحظة الخارجية فى رسم صورهم . وهذا بدير ابن فايد ، وهو رابع الأربعة ، ليست له علامة تميزه عن غيره سوى وظيفة القضاء التى لم يبلغها بالتفوق فى العلم وإنما انتقلت إليه انتقال الارث ، ولكن هذا لم يمنع المصريين من أن يجعلوا هذا القاضى الأمين على إقامة الشرائع والشعائر يبدو فى صمة العلماء وكرامتهم ووقارهم واحتشامهم ونزاهتهم أما سائر الأمراء والفرسان الهلالية فأخوة أو أبناء للثلاثة المتقدمين ، ليست لهم خصائص يمتازون بها ، وإنما هم تكرار

مصغر باهت اللون لأولئك الثلاثة . مثال ذلك ، بريقع ورزق ونصر وزيد وزيدان ومحمد وعلى . كما أن الرجال الذين انضموا إلى الحلف الهلالى العام ، مثل عامر الخفاجى ، لا يعرفون بخصلة معينة . وهم وإن كانت الحوادث لم تجعلهم هلالية لحما ودما ، إلا أن أوصافهم المجملة لا تختلف فى شىء عن أوصاف غيرهم .

وإذا انتقلنا إلى معسكر خصوم الهلالية ، فاننا لن نجد فيهم شخصية بارزة تستحق الوقوف عندها إلا خليفة الزناتى الذى احتفت به السيرة أيما احتفال ، لتجعله كفاء الهلالية فى القدرة والشجاعة . ولم يقنع المصريون بأن يولد كما يولد غيره من الأبطال ، ونحن نذكر أن الأحداث التى أحاطت مولد الحسن أو أبى زيد أو دياب لم تكن خارقة أو خرافية وإنما كانت اللابانة عن مكان هؤلاء من آبائهم وأقوامهم ، وعما تخبئه المقادير لهم . أما ولادة خليفة الزناتى فلم تقم بمجرد المبالغة والتهويل ، وإنما قامت بمجاوزة الحدود الطبيعية ، حتى لتسلك المولود مع الشخصيات الاسطورية فقد انفرد بأنه من أب أنسى وأم جنيه ، وللمصريين فى التزاوج بين الانس والجن عقائد لاتزال موجودة إلى الآن . واستتبع ذلك مغايرة حياته للأنامى من حيث التعرض للتلف . وما عليه إذا طعن إلا أن يسكب على جرحه قطرات من « ماء الحياة » حتى يبرأ لتوه . ولن يلقى حتفه إلا إذا حان حينه المقدور . ومن ثم فهو شجاع لايهاب أحداً من الفرسان كائنا من يكون إلا دياب بن غانم ، وهو بصير بأساليب الحرب عنيد فى النزال صبور على الكر والفر ، له حربة تقد الفارس والفرس ، وتفاق الصخر تحتهما ونتج عن هذا أن أصبح السيد المطاع فى قومه لايعصى له أمر ولاترد عليه كلمة . فلما اقتحم الهلالية بلاده نفر إليهم فى جنده وأحلافه واشتدت وطأته عليهم وناذل فرسانهم صبورا عنيدا ، وكان يقهرهم واحداً بعد واحد . لم يقف أمامه الحسن أو أبو زيد . وصرع تسعين من شجعانهم ، ولم يقنع بهذا بل كان يحز رؤسهم عن أبدانهم ويعلقها على أسوار تونس ، إرهابا للهاجمين وفتا فى عضدهم . وكاد اليأس

يستولى على الهلالية ويعيدهم أدراجهم لولا أن استعطفوا ديبا وكانوا يعرفون كما يعرف خليفة الزناتى ، أنه وحده الذى يصرعه ، فلما رآه عرفه لساعته ، ولكنه لم يتزلزل وظل يجالده ويداوره الأيام الطوال . وتصل السيرة فى هذه المعركة إلى غايتها القصوى وعلى الرغم من وضوح النتيجة فان التوازن بين الرجلين يبعدها عن المخيلة ، وهنا تتداخل المكيدة فى شخص سعدى ابنة الزناتى فترجح كفة ديب عليه . وليست لخليفة الزناتى فى السيرة خصلة غير الشجاعة والحزم . ولولا ما كانت تدبره ابنته بليل ما أفلت الجواسيس فى ريادتهم ، ولا وقفت جحافل الهلالية فى تغريبتهم . وليس فى المعسكر الزناتى من الرجال سوى هذا البطل . ولم تورد السيرة غيره إلا العلام وزيره ، وقد كان كما يدل على ذلك اسمه ، ذا دراية بالعلوم الخفية كالسحر والتنجيم . ولم تكن له ارادة تقف إلى جانب مولاه أو ابنته ولاشذوذ فى ذلك على منطق السيرة ، لأنه وهو العليم بالمصير ، عليه إذا عجز عن نصرة قومه أن يقف من الحوادث موقفا سلبيا .

وصنيع المصريين مع شخصيات النساء كصنيعهم مع شخصيات الرجال ، نظروا إليها من خارجها واكتفوا بالوصف دون التحليل ، واختاروا من الخصال أبرزها ليكون العلامة المميزة على صاحبتها وكانت مهمتهم فى ذلك أيسر من مهمتهم فى وصف الرجال ، ذلك لأن مكان المرأة من السيرة ثان إذا قيس بمكان الرجل . ولكنهم انتخبوا شخصيتين نسائيتين اثنتين ، وأولاهما عناية فائقة لاتقل عن عنايتهم بالأبطال البارزين ، وهما الجازية وسعدى . ولايفوتنا قبل أن نورد صورتيهما ، أن نسجل أن المجتمع المصرى لون هاتين الشخصيتين باللون الذى يريد ، وهو المشتق من حياته وتجاربه ، ويجب أن نلاحظ أن المنشدين كلهم رجال ، وأن جماهير المستمعين لهم مباشرة هم أيضاً رجال ، وإذا اتفق وأنصت إليها نساء ، فانما يكون ذلك من وراء الحجب والنوافذ . وإذن فالتصوير يعتمد على تمثل الرجل للمرأة ولايقوم على تمثلها

لنفسها ، وهو متأثر برأيه فيها من ناحية وباغارتها بعض صفاته من ناحية أخرى .

ولسنا ندرى أكانت « الجازية » اسمها ، أم كان لقباً عليها لأن السيرة تذكر فى حوادثها الأولى اسماً آخر لها وهو « توربارق » ، وغير معقول أن تكون الجازية لغة فى « الغازية » لأنها عرفت بهذا الاسم قبل أن تتزوج وبالتالى قبل أن يقوم الهلالية بغزوتهم الكبرى وهى تعرف فى جميع الأحداث بعد أن تركت زوجها الأول بكنيتها « أم محمد » وهذه الكنية تزحم اسمها وتكاد تغلب عليه مما يدل على أن المجتمع المصرى كالمجتمع العربى يؤثر أم البنين على سواها ، ويؤثر هذه الصفة على غيرها من الصفات ، ومن الطبيعى أن تكون صورة الجازية الجثمانية مثالية كصور النساء فى القصص الشعبى كله ، وهى توصف بأنها « جميلة المنظر لطيفة المحضر ، بديعة الجمال ، عديمة المثال فى الحسن والكمال والقد والاعتدال وفصاحة المقال ، لا يوجد مثلها بين الخلق لا فى الغرب ولا فى الشرق . . . » وهو كلام عام ينطبق على بطلات القصص الشعبى كلهن ، وليست فيه خصوصية تتميز بها الجازية . وتلتقى الزوجية والأمومة فى شخصها ، فقد كانت تحب زوجها « شكر » صاحب مكة ، ولا تعدل به رجلا آخر ولو كان من قومها ، وكانت تبكى فراقه وفراق ولدها منه فى آن واحد ، ولم يغلبها على هذه العاطفة التى تجذبها إلى أسرتها الخاصة إلا العاطفة القومية العامة ، من أجلها هجرت زوجها الذى تؤثر ، وولدها الذى تحب ، وفارقت خفض العيش معه إلى جفوة الحياة القاسية التى تقوم على النقلة والحرب . وتبدو هذه العاطفة القومية التى تكاد تنسيها ذاتها عند ما عرضت نفسها ، والهلالية فى مصر ، على أبى زيد ليبنى بها بدلا من زوجته « عالية » التى عادت مغضبة إلى جزيرة العرب ، وذلك ترضية له وتشبثاً به حتى لا يفارق قومه وهم أحوج ما يكونون إليه كما يبدو النضال بين العاطفتين المتنازعتين ، وهو الذى أوردته السيرة موضوعا لا محالا ، عند ما نزل الهلالية بابن عمهم الماضى بن مقرب ، فقد أراد أن يصهر إليهم فى الجازية ووافق

أهلوها على ذلك ، ولكنها رفضت وفاء لزوجها حتى إذا جاءتها موافقته — وهو أمر شاذ ومصطنع — رضخت مكرهة وتشبثت بقومها كما تشبثوا بها فرافقتهم إلى غايتهم فى تونس . وكما كان الأمراء هم الصور الدالة على أقوامهم ، فكذلك كانت الجازية هى الصورة الدالة على نساء الهلالية جميعاً ، تتزعمهم فى الاستنفار إلى القتال والتشجيع عليه ولكن أبرز خصالها هى الحيلة . وتظهر جلية فى موقفين أولهما عند ما آثرت قومها على زوجها وأرادت أن تتحايل عليه . وثانيهما عند ما أخذت فتيات القبيلة ومعهن أبو زيد لتحتال على بواب تونس ، ليسمح لهن بالدخول ليستطلع أبو زيد ما يريد من الأمراء . وبلغ من قوة شخصيتها أن كانت تشارك فى تدبير الأمور واقرار الخطط حتى قيل أن لها « ربع المشورة » فى الديوان . هذا إلى شجاعة نادرة وتكاد تقربها من الرجال .

وتنحصر قيمة النساء الهلاليات الأخريات فى علاقتهن بآبائهن أو بعولتهن . وهن يغظن أو يتضاءلن بمقدار هذه العلاقة . وإذا كان لبعضهن أثر ما فى الحوادث ، فانما يكون ذلك بطريق غير مباشر . فالسيدة خضرة الشريفة أم أبى زيد ، والعالية أو الناعسة زوجتاه ، وربة ابنته تعود أهميتهن إليه وحده . وشيحه وعمره وسروه أخوات السلطان حسن ، وأمية ابنته ، ونافلة أخت دياب ، ووطقا ابنته والمارية ابنة القاضى بدير . كل هؤلاء مجرد أسماء ليست لهن صفات معينة بارزة أو غير بارزة وقد يذكرن فى معرض الحوادث ويؤثرن فيها ، وقد يتأثرهن الآباء والأزواج ، ولكن من اليسير أن يخلط بينهن لعدم الفوارق ، كما هو ملاحظ بين نسخ السيرة عند ما تتعرض لأسمائهن وعلاقاتهن . وهن يدرن فى الفلك العام ويتبعن أميرتهن الجازية فيما تأخذ نفسها به . وفيهن جميعاً عفة اشتهر بها العرب ، وأحب المصريون أن تكون فى نسائهم وفتياتهم .

وفى المعسكر الآخر ، سعدى وحيدة خليفة الزناتى فى رواية أخرى ، وابنته الأميرة

عنده فى رواية أخرى . وصنيع المصريين القصاص فى هذه الشخصية أكبر من صنيعهم فى أية شخصية أخرى ، وتكاد تكون من تلفيقهم ، وهى بارعة الجمال ، ولعلها تفوق الجازية فيه ، لأن جمالها هو العامل المؤثر فى أعظم حوادث السيرة ولم يرسموها مكروهة أو مبغضة إلى النفوس لأنها زناتية ، وقد مر بنا أنهم لم يزروا بصورة أبيها ، ولكنهم جعلوها مباينة من بعض الوجوه العامة للجازية ؛ فسعدى على نقيضها تطيع عاطفتها الخاصة وتعصى عاطفتها القومية . وتدور حياتها كلها على خصلتين متداخلتين ، هما الحب والحيلة التى تبلغ درجة الكيد ، فما أن شغفت بمرعى حتى دفعها ذلك إلى القيام بكل عمل ، والاستهانة بكل عرف . فاستغلت مكانها عن أبيها حتى دفعته إلى تعديل حكمه بالاعدام على أبى زيد ورفقائه الثلاثة باعتبارهم جواسيس ، إلى السجن المؤبد . ثم استغلته ثانية حتى أفرج عن أبى زيد ، وهى تعلم مقامه وأن ادعت أنه عبد . واتصلت بأعداء قومها الهلالية وانضمت إليهم بما علمت من العراقيين ، من أن مصرع أبيها لن يكون إلا على يد دياب بن غانم وبصرتهم بنقط الضعف فيه ، كما كانت تحث أباها على منازلة دياب ، وهو يعلم أن مصرعه على يده . ولما لم يف لها مرعى بما تعاهدا عليه ، ظلت وفية له على الرغم من أن دياباً طلبها لنفسه ، وهو الطاغية العنيد فأبت وأخذ يعذبها ويفتن فى إذلالها لكى تنزل عن إبائها فلم يفلح ، وشكته إلى الحسن بن سرحان وتذهب رواية إلى أنه أعانها على تحقيق أملها فى الزواج من مرعى وتذهب رواية أخرى إلى أن دياباً لما بلغه شكاتها أخذته العزة بالاثم وقتلها .

وليس فى المعسكر الزناتى من النساء بعد سعدى غير جاريتها مى وهى مقحمة فى هذا المعسكر اقحاما ، فان السيرة تروى أنها عربية هلالية وأنها انتزعت خفية من أهلها وبيعت فى تونس ، فكانت من نصيب خليفة الزناتى خلعها على ابنته لتكون الوصيفة الملازمة لها ووظيفتها فى الحوادث كوظيفة التوابع فى القصص التمثيلى

يعين على تجسيم العواطف الذاتية لتكون أكثر وضوحاً من قصرها على المناجاة الفردية ، كما أنها بحكم أصلها الهلالى كانت تلح على مولاتها بأخبار قومها حتى أثرت فيها بما يقرب من الاستهواء ، وأن كانتا عالمتين كغيرهما بالمصير .

ومن العجيب أن فن التشخيص فى سيرة بنى هلال وإن قام على الأوصاف الخارجية البارزة إلا أنه أدق وأدنى إلى الحياة منه فى رسوم خيال الظل ، فان المثل الذى أطلعنا عليه منها [1] يفيد بأن الأشخاص كانوا يتعاقبون فى الظهور يتحدث كل منهم معرفا بنفسه ، مبيناً أوصافه واتجاهاته فى الحياة بصفته عامة . ولم يكن يدور بينهم حوار بالمعنى الصحيح . ومن ثم لم تكن هناك حوادث تستتبعها عقدة أو حبكة أما أشخاص السيرة فعلى الرغم من صورهم العامة ، أحياء يتحركون ويتحاورون ويتداخل بعضهم فى بعض ويتفاعل بعضهم مع بعض ويسايرون الحوادث التى كتبت لهم ويلقون المصير الذى قدر عليهم . وهذا هو الذى يدعونا إلى القول بأن نواة الدرامة هى هذه السيرة وأمثالها وليست رسوم خيال الظل . ولعل « صندوق الدنيا » فى منزلة بينهما ، وإن كانت صلته بسيرة بنى هلال أوثق منها بأى شىء آخر ، فهو يعتمد على الرسوم المتعاقبة ، كما هو الشأن مع خيال الظل ، ولكنها رسوم واضحة القسمات لا أشباح مجسمات ، ثم أن هذه الرسوم معظمها خاص بالهلالية وإذا كان خيال الظل يتفوق فى شىء فهو اقتطاعة نماذجه البشرية من الحياة الواقعية واعتمادة كالمنشد على التلوين الصوتى واستغلاله الموسيقى . وقد بلغ من تفاعل سيرة بنى هلال مع الحياة المصرية أن أهل مصر كلفوا بأبطالها وخلصوا أسماءهم على أبنائهم . وفيهم من يحلى يده أو صدره بالوسم المشتق من صورهم كما تتمثلها العقلية العامية . وثمة صور تزين جدران البيوت والدكاكين والندوات تمثل أمراء الهلالية وأميراتها .

(١) محمد بن دانيال . طيف الخيال ، نشرة جاكوب .

وقد مر بنا أن سيرة بنى هلال وأضرابها من الأنواع الأدبية الشعبية أروج فى الريف منها فى القاهرة وهذا من حيث مقدار الرواج لا من حيث نوعه واتصاله بفن السيرة نفسه ذلك لأن المجتمعات الريفية التى تنشر فيها موقوتة لا يمكن أن تستغرق السيرة بأكملها مهما طالت . فالموالد الخاصة بالأولياء فى القرى لا تستمر إلا بعض شهر ، والأعياد لا تتجاوز اليوم أو اليومين إلا قليلا ، والأفراح أيام معدودات أياً كان أصحابها غنى وبسطة رزق . أما فى القاهرة فان هذه المواسم والحفول أكثر عدداً وأطول مدة وأزحم جمهوراً ثم أن فيها هذه الندوات الليلية المستمرة المعروفة بالقهاوى التى استلزمها التجمع واقتضاها جوها الحار وجنوح القاهريين إلى السهر واحتباس بيوتهم عن الهواء وينشاها التجار وأصحاب الحرف من الطبقتين الوسطى والدنيا ، وهى متفشية فى أنحاء القاهرة منذ أمد بعيد لا يكاد يخلو منها مكان [١] . وكان المنشدون إلى عهد قريب يتنقلون بين هذه القهاوى فى مختلف الأحياء فيستطيع الواحد منهم أن يسرد سيرة بنى هلال كلها وهى تستغرق أكثر من ستة أشهر . بل إنه إذا استعيد كرها أو كرر بعض حوادثها . وهذا هو الذى مكن لها فى نفوس القاهريين . وكما أنها تأثرت بالمجتمع المصرى العام ، فان هذا المجتمع الخاص قد طبعها بطابعه .

وتختلف هذه القهاوى (نقصد الوطنية منها) من الناحية النفسية عن الأندية النظامية التى تقيدها لوائح وتقاليد والتى تنتخب أعضاءها على أسس اجتماعية أو ثقافية أو مهنية ، وإن كنا نعلم أن كثيراً من هذه القهاوى كانت لا تزال لها صفاتها النقابية

---

(١) أحصى على باشا مبارك عدد القهاوى فى القاهرة فوجد أنها تبلغ ١٠٦٢ قهوة موزعة على مختلف الأحياء كالآتى :

الأزبكية ٢٥٣ ، بولاق ١٦٠ ، عابدين ١٠٢ ، السيدة زينب ٧١ ، الخليفة ٧٥ ، مصر العتيقة ٥٤ ، باب الشعرية ٦٦ ، توصون ٨٥ ، الجمالية ١٤٢ ، الدرب الأحمر ٦٠

ج ١ ص ٩٥ ط بولاق ١٣٠٦

أو المحلية ، بحيث تنتظم جمعاً متجانساً من الناس يؤلف بينهم الجوار فى الحى الذى ينزلونه أو الاقليم الذى نزحوا عنه أو الحرفة التى يشتغلون بها . ولكن خضوعها للعرف غير المنظور وتحررها من الأوضاع والقيود والسماح لكل من يريد أن ينشاها ، جعلها أماكن تزجية فراغ فحسب وجعل روادها يصدرون فى تصرفاتهم وأقوالهم عن عقلية الجمهور . أضف إلى ذلك أن أغلبهم لا ينشاها إلا بعد أن يفرغ من عمله فهو محتاج إلى الراحة الذهنية والاسترخاء الجثمانى . وإذا انصرف إلى شىء فالى حديث بطالة ، أو إلى لعب يغير نوع الجهد الذى بذله طول يومه ويثير فيه بعض ما يمكن فى أطوائه من الغرائز والرغبات . ولا تزال الصورة التى سجلها ادوارد لين [1] لقهاوى القاهرة موجودة فى الأحياء الوطنية الأصيلة التى لم تتغير إلا قليلا . ومن الطبيعى أن يكون مثل هذا الجمهور محباً للفرار بنفسه من الحياة الواقعية وإطلاق العنان لأخيلته أو أوهامه إذا شئت . وحسبه أن يستمع إلى سيرة بنى هلال وأن يتتبع حوادثها وأشخاصها فى مختلف البلدان والبيئات وهو قابع فى مكانه تحيط به رسومها عن يمين وعن شمال ومن الكلم المأثور عند المعنيين بالنفس الجماعية أن عقلية الجمهور أضعف من عقلية كل فرد فيه . وإذا ركز انتباه رواد القهوة إلى شىء موحد ، فان هذا الانتباه الجماعى قليل الحظ من التأمل والمراجعة . وهذا هو السبب فى أن المنشدين ليسوا فى حاجة إلى تبرير الخوارق أو المتناقضات وما من ريب فى أن العقائد القديمة لا تزال راسية فى نفسية المنشدين وجمهورهم على السواء ، فأدى ذلك إلى بعث التقاليد القصصية القديمة الخاصة بالسحر والرصد والتنجيم والمزاوجة بينها وبين حوادث السيرة فى اسراف يقتضيه غياب العقل المتأمل مع الاعتماد على الاستماع القاصر عن الفحص والاسترجاع . وقد كثر هذا العنصر فى السيرة الهلالية فى ديوان مصر بخاصة .

(١) ادوارد لين . المصدر المذكور ج ٢ ص ٣٢ وما بعدها .

من ذلك حكاية الغزالة المسحورة التى استدرجت دياباً حتى أبعدته عن قومه ، إلى أحاديث ملوك الجن وملكاته وما كان بينهم وبين الهلالية من وقائع وحروب تشبه إلى حد كبير ما وجدناه فى الأجزاء الأخيرة من سيرة الظاهر بيبرس وكتاب ألف ليلة وليلة ، مما يدل على أن العقلية التى تغتذى بهذا القصص الشعبى واحدة . على أن لسيرة بنى هلال شأناً آخر فهى تشير فى هذا الجمهور غريزة المقاتلة الكامنة فيه التى لا تحركها الحياة الحضرية الوادعة ، وهى فى ذلك تقوم بالوظيفة نفسها التى تقوم بها مختلف المباريات من ألعاب داخلية وخارجية فيندفع كل إلى التعصب لفريق على فريق ، وينضم بعض الجمهور إلى أبى زيد ، وبعضه الآخر إلى دياب ويبلغ من قوة هذه الاستثارة أن يختصم الفريقان ويأخذ المشد فى تغذية هذه الخصومة وأن تأثر فى بسط الحوادث أو طيها بمقدار ما يبذل كل منهما . وكثيراً ما تتحول هذه الخصومة الاستهوائية إلى خصومة حقيقية تنتهى بمراك دموى وكل الجمهور هلالية بمعنى أن أحداً لا يمكن أن ينضم إلى خليفة الزناتى . وتتأثر هذه العصبية فى بعض الأحيان بما يستقر فى إخلاد الجمع من الأفكار النابتة المتعلقة بأنسابهم ، كما تتأثر بخلائقهم ، فالعنيد الصلب زغبى هواه مع دياب . وصاحب الحيلة هواه مع أبى زيد والكريم الأنيق يشغل بالحسن . ويميل أصحاب الوجوه السمراء إلى أبى زيد . ومن الملاحظ التى تستحق التسجيل أن أغلب جمهور القهوة من الكهول أو إذا شئت الدقة ، أنهم كانوا كذلك إلى عهد قريب ، فلم يكن يسمح فى تلك الأوساط للصبيان أو اليافعين بغشيان أمثال هذه الندوات ، وإذا تجرأ أحدهم على ذلك تعرض للسخط الاجتماعى العام . وهذه الكهولة هى السمة البارزة فى السيرة الهلالية كلها ، فقد احتفلت بأبطالها وهم فى هذه السن الناضجة ، كما أن أعمال هؤلاء الأبطال تملها المثل الخلقية والاجتماعية الخاصة بالكهول ، كالاحتفال بالزواج والأنجاب والعفة بين الكبار الصغار على السواء .

إذا كانت سيرة بنى هلال قد قامت فى مجتمعها العربى الأول بوظيفة حيوية

خطيرة ، هى ترسيب التراث القبلى العام وادخار التجاريب والاحتفاظ بالمقومات الجماعية ، فقد قامت فى البيئة المصرية بوظيفة لا تقل عنها خطراً ، وهى إذكاء الشعور بالذاتية الوطنية ، وبيان استقلالها ومغايرتها لغيرها والاعتزاز بها والدفاع عنها ، ثم العمل على البلوغ بها إلى الكمال الممكن كما يتصوره المصريون أنفسهم ، بما يحسونه من الفارق بين المثال والواقع من ناحية ، وبما ينقدون به ذواتهم ومجتمعهم من ناحية أخرى . إلى ما تقوم به من بعث الغرائز التى توشك أن تنقرض والتى لا يستطاع الدفاع عن الذاتية الخاصة أو العامة إلا بها . ويظن البعض أن سيرة بنى هلال وأمثالها سائرة إلى زوال . ولكن الوعى القومى قد نسبه إليها وأعاد لها بعض اعتبارها ، كما أن وسائط الاتصال بالجماهير كالراديو أو السينما تضاعف من قيمتها ، بل إن أنصار الأدب الرمزى لا يجدون غضاضة فى انتهاب موضوعاتها ، ونحن على يقين من أنها ستعيش ما عاشت الذاتية المصرية ، ولن تقف عن التطور بتطورها .

مصادر البحث

المصادر العربية :

١ — الدكتور ابراهيم رزقانه — الجغرافيا التاريخية لشرق الدلتا ، رسالة دكتوراه لم تطبع .

٢ — ابن الأثير . . . — الكامل فى التاريخ ، طبعة نورنبرج ، ليدن ١٨٦٦م .

٣ — » — أسد الغابة ، القاهرة ١٢٨٥ هـ .

٤ — ابن حجر العسقلانى . — الإصابة ، القاهرة ١٣٢٥ هـ .

٥ — ابن حوقل . . — المسالك والممالك ، المكتبة الجغرافية العربية ، طبعة ده غوى ، ليدن ١٨٧٢ م .

٦ — ابن خرداذبه . . — المسالك والممالك ، طبعة ده غوى ، ليدن ١٨٨٩م .

٧ — ابن خلدون . . — كتاب العبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ .

٨ — ابن خلكان . . — وفيات الأعيان ، القاهرة ١٢٧٥ هـ .

٩ — ابن دريد . . . — كتاب الاشتقاق ، طبعة نستنفلد ، ليدن ١٨٥٤م .

١٠ — ابن عبد ربه . . — العقد الفريد ، القاهرة ١٣١٧ هـ .

١١ — ابن عذارى . . — البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ليدن ١٨٤٨ م .

١٢ — ابن عساكر . . — التاريخ الكبير ، دمشق ١٣٣٢ هـ .

١٣ — ابن قتيبه . . . — الشعر والشعراء ، طبعة ده غودى ، ليدن ١٩٠٢م .

١٤ — » . . . — المعارف ، القاهرة ١٣٥٣ هـ .

١٥ — ابن الكلبي . . — الأصنام ، طبعة أحمد زكى باشا ، القاهرة ١٣٤٣هـ .

١٦ — » . . . — نسب عدنان وقحطان .

١٧ — ابن منظور . . — لسان العرب ، بولاق ١٣٠٧ هـ .

١٨ — ابن هشام . . . — السيرة ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .

١٩ — ابن يعيش . . . — شرح مفصل الزمخشرى ، ليبزج ٧٨٧٦ م .

٢٠ — أبو تمام . . . — ديوان الحماسة ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

٢١ — أبو حنيفة الدينورى . — الأخبار الطوال ، القاهرة ١٣٣٠ هـ .

٢٢ — أبو الفرج الاصفهانى — الأغانى ، ليدن ١٣٠٥ م .

٢٣ — أحمد بن زيني دحلان . بيان أمراء البلد الحرام ، القاهرة ١٣٠٥ م .

٢٤ — أحمد الشايب . . النقائض ، القاهرة ١٩٤٦ م .

٢٥ — أحمد فريد رفاعي . عصر المأمون ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

٢٦ — الأزرقي . . . أخبار مكة ، مكة ١٣٥٢ هـ .

٢٧ — الاصطخري . . المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٧٢ م .

٢٨ — الآلوسي . . . بلوغ الأرب ، القاهرة ١٩٢٤ م .

٢٩ — أمين الخولي . . الجندية في الاسلام ، مخطوط

٣٠ — « « . . في الأدب المصري ، القاهرة ١٩٤٣ م .

٣١ — بتلر . . . . فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٣٥١ هـ ١٩٣٣ م .

٣٢ — البحتري . . . كتاب الحماسة ، بيروت ١٩٠٩ م .

٣٣ — البكري . . . المسالك والممالك ، طبعة فستنفلد ، ليدن ١٨٧٢ م .

٣٤ — البلاذري . . . فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٩ هـ .

٣٥ — التهانوي . . . كشاف اصطلاحات الفنون ، كلكته ١٨٦١ م .

٣٦ — الدكتور جب وآخرون تراث الإسلام ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٣٦ م .

٣٧ — جرير والفرزدق . النقائض ، طبعة بيفان ، ليدن ١٩٠٥ م .

٣٨ — حسن ابراهيم حسن . الفاطميون في مصر ، القاهرة ١٩٣٢ م .

٣٩ — « « تاريخ الاسلام السياسي ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٥ م

٤٠ — حسن محمود . . دولة الزيريين ، رسالة ماجستير لم تطبع .

٤١ — الدكتور حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ م .

٤٢ — القائمقام رفعت الجوهري بك . أسرار من الصحراء الغربية ، القاهرة ١٩٤٧ م .

٤٣ — الزبيدي . . . تاج العروس ، القاهرة ١٣٠٦ هـ .

٤٤ — سركيس . . . فهرس المطبوعات العربية ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

٤٥ — الزمخشري . . المفصل ، طبعة بروش ١٨٧٩ م .

٤٦ — سيبويه . . . الكتاب في النحو ، برلين ١٩٠٠ م .

٤٧ — السمعاني . . . الأنساب ، ليدن ١٩١٢ م .

٤٨ — السيوطي . . . المزهر ، بولاق ١٢٨٢ م .

٤٩ — السيوطى . . . رصف اللآل فى وصف الهلال بالاستانة ١٣٠٢ هـ .
٥٠ — الضبى . . . المفضليات ، ليبزج ١٨٨٥ م .
٥١ — الطبرى . . . تاريخ الأمم والملوك ، طبعة ده غوى ، ليدن ١٨٧٩ — ١٨٨١ م .
٥٢ — عبد الحميد يونس . سيرة الظاهر بيبرس ، رسالة ماجستير لم تطبع .
٥٣ — القائمقام عبدالرحمن زكى الأعلام وشارات الملك فى وادى النيل ، القاهرة ١٩٤٩ م .
٥٤ — عبد الوهاب حموده . اللهجات والقراءات ، القاهرة ١٩٤٨ م .
٥٥ — على باشا مبارك . الخطط التوفيقية ، بولاق ١٣٠٦ هـ .
٥٦ — عمر الصالح البرغوثى الوزير اليازورى ، القاهرة ١٩٤٨ م .
٥٧ — فانديك . . . اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، القاهرة ١٣١٤ م .
٥٨ — الدكتور فؤاد حسنين على قصصنا الشعبى ، القاهرة ١٩٤٧ م .
٥٩ — قدامه . . . كتاب الخراج ، المكتبة الجغرافية العربية ، طبعة ده غوى ، ليدن ١٨٨٩ م .
٦٠ — القلقشندى . . . صبح الأعشى ، القاهرة ١٣٤٠ هـ .
٦١ — كعب بن زهير . بانت سعاد ، طبعة باسيه ، الجزائر ١٩١٠ م .
٦٢ — محمد بن دانيال . خيال الظل ، طبعة جاكوب .
٦٣ — محمد عبد المعيد خان . الأساطير العربية قبل الاسلام ، القاهرة ١٩٣٧ م .
٦٤ — محمد عزة دروزه . عصر النبى ، دمشق ١٣٦٥ هـ
٦٥ — محمد فهمى عبد اللطيف أبو زيد الهلالى ، القاهرة ١٩٤٦ م .
٦٦ — المسعودى . . . مروج الذهب ، طبعة بربيه دى مينار ، باريس ١٨٧٧ م .
٦٧ — المسعودى . . . التنبيه والإشراف ، ليدن ١٨٩٣ م .
٦٨ — المقريزى . . . البيان والإعراب ، القاهرة ١٩١٦ م .
٦٩ — » . . . الخطط ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .
٧٠ — » . . . إمتاع الأسماع ، القاهرة ١٩٤٦ م .
٧١ — ناصر خسرو . . سفرنامة ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

٧٢ — الهمدانى . . . صفة جزيرة العرب ، طبعة مولر ، ليدن ١٨٨٤ ، ١٨٩١ م .
٧٣ — وستر مارك . . الزواج ، ترجمة عبدالحميد يونس ، القاهرة ١٩٣١ م .
٧٤ — ياقوت . . . معجم البلدان ، القاهرة ١٣٢٣ هـ .
٧٥ — اليعقوبى . . . كتاب البلدان ، المكتبة الجغرافية العربية ، طبعة ده غوى ، ليدن ١٨٧٢ م .

ويضاف إلى هذه المصادر :

٧٦ — دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٣٣م — ١٩٤٩م .
٧٧ — فهرس دار الكتب المصرية الجزءان الرابع والخامس ، القاهرة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ — ١٩٣٠) .

المصادر الافرنجية :

1 . Ahlwardt (W) : Die Handschriecten - Verneichnisse der Koniglichen Bibliothek, Berlin 1896.

2 . Ammar (Abbas) : Racial Elements] in the North-Eastern Province of Egypt : a study of Ethnic stocks in Sharquya,

3 . Basset : Bull de Corros p. Afric.

4 . Bel (A) : La Djazya.

5 . Chauvin (V) : Bibiliographie des ouvrages Arabes.

6 . Collingwood (R.G.) : The principles of Art, Oxford 1938.

7 . Creswell (K.A.C) : Early Muslim Architecture.

8 . Ellis : Catalogue of Arabic books in the British Museum.

9 . Elworthy (F.F.) : The Eavel eye, London 1895.

10. Faircild (Henry Pratt) : Dictionary of Sociology, New York.

11. Frazer (sir James George) : The Golden Bough, a study in Magic and Religion, London 1925.

12. Freud (Sigmund) : Group Psychology and the Analysis of the Ego, London 1940.

13. Gayley (Charles Mills) : Methods and Materials of Literary Criticism, California 1919.

14. Guecber (H.A.) : The book of the Epic, London1930.

15. Hammerton (J.A.) : Universal History of the world.

16. Hartmann (M.) : Geitscher f. Afrik u. ocean Sp.

17. Lane (Edward William) : An account of the Mannars and Customs of the Modern Egyptians, London 1871.

18. Lane-Poole (Stanly) : A History of Egypt, The Middle Ages, London 1925.

19. Mcdougall (William) : An Introduction to Social Psychology, London1 936.

20. Mcdougall (William) : The Group Mind, London 1939.

21. Mackail (J.W.) : Lectures on Poetry.

22. Malinowski (B.) : Myth in Primitive Psychology.

23. Marcais (Georges) : Les Arabes en Berbérie, 1913.

24. Mayers (J.L.) : The Dawn of History, London 1927.

25. Mercier (E.) : Hist. de l'Afrique, Paris 1888-1890.

26 Nicholson : Literary History of the Arabs.

27. Paris (Gaston) : Exrtraite de la Chanson de Roland, Paris 1921.

28. Spence (Lewis) : An introducrtion to Mythology, London 1931.

29. Spence (Lewis) : Myths and legends of Babyloniaand Assyria London 1928

30. Culturgesch des Orients : Vienna 1875-1877.

31. Ency : of Islam.

32. Ency. of Relig. and Ethics.

عناصر البحث

صفحة

تمهيد ١

الاحتفال بالأدب الشعبي . وصل الأثر الأدبي ببيئته . الأدب وعلم النفس . النفسية الفردية والنفسية الجماعية . تصحيح خطأ . تسوية الذوق العام . الأدب الشعبي والأدب غير الشعبي . تعريف الأدب الشعبي . نظرية الاسترجاع . الفكرة الاقليمية فى الدراسة الأدبية . التخصص الجامعى . عنوان البحث . منهج البحث . منهج التاريخ . التاريخ الجماعى لا التاريخ الاجتماعى . صلة الأدب بالتاريخ . منهج النقد الفنى . صعوبة التطبيق على الأدب الشعبي . اندماج المنشئ فى المتذوق .

الكتاب الأول

الهلاليـــة فى التـاريخ

الباب الأول — فى العصر الجاهلى ١١

الجاهلية وتحديدها . الانساب . قيس عيلان . سليم . هوازن . عامر . هلال . دلالة الأنساب . البيئة المكانية . منازل قيس . منازل سليم . منازل هوازن . منازل عامر . منازل هلال . المشخصات البيئية . نجد . أثر البيئة الطبيعية . المرحلة الرعوية . أيام العرب . الأيام القيسية . الأيام الخارجية . الأيام الداخلية . الأيام وترتيبها الزمنى . الأبطال ومشخصاتهم . المعبودات . ضمار . جهار . ذو الخلصة . الحمس . الخصائص اللسانيه . عهد انتقال .

الباب الثانى — فى العصر الاسلامى ٣١

الحواضر العربية . النزوع إلى التوحد . القرآن الكريم . النواة القومية الأولى . موقف قيس . بداية الصراع . موقف سليم . موقف عامر . جهود سلمية . ولاء سليم . الدين لا العصبية . هوازن تدافع عن الجاهلية .

صفحة

غزوة حنين . استسلام هوازن . التطور الجماعى . حروب الردة . موقف سليم . موقف عامر . العصبية القومية . القيسية واليمانية . جماعات تتشبث بالبداوة . ولاء سليم . ولاء قيس للزبير . أيام قيسية . عبد الملك يقرب القيسية . سليم فى مصر . امتداد العصبية . سليم تغير على المدينة . القرامطة والأعراب من سليم وهلال . خطر الأعراب يبدو من جديد .

الباب الثالث — الغزوة الكبرى ٥٩

تاريخ طبيعى . البواعث المناخية . الجزيرة العربية واتجاهها البشرى الهجرات الأربع الكبرى . البابلية . الكنعانية . الآرامية . الاسلامية . عرب الفتح . عرب البوادى . الهجرة الإرادية . الهجرة الهلالية والبواعث المناخية . الهلالية فى الشام والعراق ومصر . الفاطميين والأعراب . الهلالية والدولة العباسية . تقسيم الغزوة الهلالية . الطور الأول يتخذ صورة الهجرة . الطريق إلى مصر . عرب الحوف . الدولة والأعراب . لماذا غلب اسم هلال . الطور الثانى يتخذ صورة الغزو . بنو قره فى برقة وغربى النيل . الفاطميون وصنهاجة . المعز بن باديس يخاصم الفاطميين . الهلالية يكرهون الفلاحة والاستقرار . القبائل التى اجتازت النيل . الغزوة طبيعية التغريبة الهلالية فى برقة . المرحلة الأولى . الهلالية والمعز بن باديس . الهلالية وزناته . الهلالية ينفرون من الملك . الفتح العربى والغزوة الهلالية . تعريب البربر . التشبث بالبداوة .

الباب الرابع — مقومات النفس الجماعية . صورة الحياة القبلية (البدوية) ٧٧

علم النفس الفردى وعلم النفس الجماعى . التصنيف النفسى للجماعات . العامل الطبيعى وأثره فى الجمع الهلالى . الهلالية شعبتان . النظام البطرقى . الرجل وقوامته على الأسرة . مكان المرأة فى الجمع الهلالى . القواعد الاجتماعية ومسائل النكاح . القواعد الداخلية . القواعد الخارجية . الاصهار بين الجماعات . روح الجماعة وسيطرتها . الخلع . الخلف . الجوار . الولاء . لا فردية فى الجمع الهلالى . الجمع الهلالى والأنعام . مكانة الخيل . الحرب . الأسلحة . الحرب البادئة . الهجرة الجماعية . تعابير بغير اللسان . التراث الهلالى . الشعار .

صفحة

الكتاب الثانى

الهلالية فى الأدب الشعبي

الباب الأول — السيرة الهلالية ١٠١

نمو السيرة . تقسيمها . رفض التقسيم المكانى . الأساس الجماعى للتقسيم . الجيل الأول . الأنساب . التفوع . التداخل . الجيل الثانى . حلقة اتصال . الباعث المناخى . الريادة . الطريق . الغاية . التبرير . التغريبة . التعبئة ونظامها . الأحلاف والخصوم فى الطريق . فى تونس . الصراع . متابعة الغزو . العصبية تظهر من جديد . الحروب الداخلية . الجيل الثالث . الأيتام . الثأر . التأهب . حصار تونس . على أبو الهيجات وشعاره الخاص . خاتمة السيرة .

الباب الثانى — محاولات فى تاريخ السيرة ١١٧

صعوبة تأريخ الأدب الشعبي . احتفال الغربيين بالسيرة الهلالية . ريتيه باسيه . أهلوارد وفهرسه . مارتن هارتمان . الفرد بل وبحثه عن الجازية . السيرة الهلالية كائن لا يزال ينبض بالحياة . الاستعانة بالمنشدين . الاتصال بين الآداب الشعبية فى البيئات المختلفة . أغنية رولاند . اختلاط اللهجات العربية والأوربية . تأثير السيرة الهلالية فى الأدب الأوربى . ترجمات أوربية لفقرات من السيرة الهلالية . ابن خلدون . اهتمامه بشكر الشريف والجازية . ذكره أعلام الغزوة الهلالية . رأيه فى أشعار الهلالية الطور الغنائى للسيرة . الطور القصصى .

الباب الثالث — مكان السيرة من الأنواع الأدبية ١٣٥

الشعر والنثر وتحديد مصطلحيهما . ازدواجهما فى القصص العربى . التعميم فى الأحكام . ضربان من السير الشعبية . شعراء ومحدثون . السيرة الهلالية تقوم بالشعر . وظائف النثر فى السيرة الهلالية . الشعر العربى والملحمة . العنصر الغنائى فى السيرة . الحب وطابعه . الموسيقى . الحرب . التحول من الغنائية الذاتية إلى القصص الموضوعى . موازنة بين السيرة

صفحة

الهلالية والسيرة الظاهرية . ظهور المنشد المحترف . مظاهر درامية . الربابة وأقسامها وطريقة استعمالها . حكمنا على السيرة الهلالية .

الباب الرابع — السيرة بين الواقع والخيال ١٥٨

السيرة الهلالية ليست أسطورة . موازنة بينها وبين أيام العرب . السيرة الهلالية والتاريخ . تصويرها للعالم الإسلامى . الحدود . اليهود . اغفالها النصارى . لا وجود لحكومة مركزية . أخبار مذكورة . روح الجمع الهلالى . مكان المرأة . الهجرة الجماعية . القتال . الانساب . البربر والعرب الهلالية . الهلالى وفرسه . تعديل الإسلام للجمع الهلالى . التراث الهلالى . الوظيفة الحيوية للسيرة فى البيئة العربية .

الباب الخامس — فى المجتمع المصرى ١٧٥

الطابع المصرى . تقاليد قصصية مصرية . السيرة الهلالية فى البيئة المصرية . الشعور بالذاتية المصرية . ظهور المنشدين ودلالته على الوعى القومى . السيرة الهلالية هى الغذاء النفسى للمجتمع المصرى بأسره . ديوان مصر . الحوادث وفلسفة الحياة . تصير الأشخاص . الحسن بن سرحان . أبو زيد . دياب بن غانم . أشخاص ثانوية فى المعسكر الهلالى . خليفة الزناتى . تشخيص النساء . الجازية . سعدى . التشخيص فى السيرة وفى خيال الظل . فى الريف والحواضر . مجتمع القهوة من الناحية النفسية . تأثيره فى السيرة . الوظيفة الفنية للسيرة فى البيئة المصرية .

مصادر البحث :

المصادر العربية ٢١٣ — ٣١٦

المصادر الافرنجية ٢١٧ — ٢١٨

فهرس الأعلام والمصطلحات

(ا)

آدم : ١١
آل جعفر : ١١٠
الأباتز : ١٧
ابراهيم الأشتر : ٤٢
ابن أبي العوجاء السلمي : ٣٤
ابن الأثير : ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٢٢
ابن أم كلثوم : ٣٣
ابن حوقل : ١٩
ابن خلدون : ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١
ابن الزبير : ٤٢
ابن عبيد الله المهدى : ٥٦
ابن عذارى : ٦٧
ابنة بجدل بن أنيف الكلبية : ٤١
أبو براء بن مالك : ٣٢
أبو حنيفة الدينورى : ٩٣
أبو ركوه : ٦٣ ، ٦٦
أبو زيد : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ ، ١٣١ ، ١٥٢ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩
أبو طاهر الجنابى : ٤٩
أبو عبيده : ٢٣
أبو موسى الأشعرى : ٣٧
أبو الهيجات : ١١٥
أتيمه : ١٠٤
الأثبج : ٦٢ ، ٢٦٧
الأحزم : ٨٩
الأحسا : ٥٧
إدريس : ١١
أرسطو : ٨٠
الأزبكية : ١٩٧ هامش
الأزد : ٢٦
الأزهر : ١٨١
الأزور : ٨٩
أسوان : ٦٠
أشجع : ٦٢ ، ٦٧
الاصطخرى : ١٩
الأصفر : ٥٧
الأصمعى : ٢٠
أعصر : ١٤
الأعوج الأصغر : ٨٩
الأعوج الأكبر : ٨٩
أكاد : ٥٢
ألجف : ١٨
ألعس : ١٨
ألف ليلة وليلة : ١٩٩

الله : ١٧
الياس : ١٤ ، ٢٤
أم محمد : ١٩٣
أمره : ١٨
أملح : ١٧
الأمويون : ٩٣
الأمين : ٤٧
أميه : ١٩٤
الأندلس : ٤٦ ، ٧١ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦
الأنصار : ٣٢ ، ٣٧
أهلوارد : ١١٩ ، ٢٠
الأوس والخزرج : ٣٢
أوطاس ١٧ ، ٣٧
أولاد على : ١١٥
أولاد الكنز : ٦٠
أويسترب : ١٧٧
أيام العرب : ٢٢ ، ١٥٩

(ب)

باب الشعرية : ١٩٧ هامش
البابليون : ٩٥
باجه : ٧٢
باسيه : ١١٨
الباهلى : ١٩
بجله : ١٥
بحران : ٣٣
البحرين : ٥٦ ، ٥٧
بحيرة البلاح : ٥٩
بحيرة الزار : ٥٩
بحيرة المنزلة : ٥٩
بحيرة النقاع : ١٨
بدر : ١٣٠
بدر الهلالى : ١٤٢
برجيس : ١١٠
البردويل : ١١١
برقه : ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ١١٥
بدير : ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٩٤
بدير بن فايد : ١٨٨
برديس : ١٦٢
بركات : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣١
برلين : ١٢٠
البرنس : ١١٥ ، ١٧١
البرنيجه : ١٤٤ ، ١٧٣
البربر : ٤٤ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣
بريقع : ١١٥ ، ١١٦ ، ١٧١ ، ١٩١
البصرة : ٢٩ ، ٤٩ ، ٥٧
بعل : ٨٢
بعلبك : ١١١
بغا التركى : ٤٩
بغداد : ٥٠ ، ٥٥ ، ٦٤
بكر : ١٥
البكرى : ٢٠
بل (الفريد) : ١٢١ ، ١٣١
بلاد المغرب : ١٠٩
بلاط الشهداء (بواتييه) : ٥٣
بلبيس : ٤٥ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٠٩ ، ١١١
بلكين : ٦٤ ، ٧٣
بلنت : ١٢٧
البليخ : ٤٣
بنو أميه : ٤٠ ، ٦١ ، ٧١
بنو بويه : ٥٧
بنو تغلب : ٤٣

بنو ثور : ٦٨ ، ١٣٠
بنو جعفر : ١١٤ ، ١١٥
بنو جهينه : ٦٠
بنو حزم : ١٥
بنو حمد : ١٠٦
بنو حمير : ١٠٦
بنو خفاف : ١٥
بنو الزبير : ٦٠
بنو زغبة : ١١٢
بنو سلجوق : ٦٤
بنو سليم : ١٥ ، ١٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٨
بنو الشريد : ١٥
بنو طلحه : ٦٠
بنو طئ : ٥٨
بنو عامر : ١٨ ، ٣٣ ، ٤٥
بنو العباس : ٥٥ ، ٦٦
بنو عدى : ٦٧
بنو عطيه : ١٣٠
بنو عقل : ١٥
بنو عقيل : ٥٠
بنو عمرو : ٦١
بنو غازى : ١٧٣
بنو قتيبه : ١٥
بنو قره : ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩
بنو كلب : ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩
بنو الليث : ٢٦
بنو المنتفق : ٥٦
بنو المهلب الأزدى : ٤٤
بنو نهشل : ٢٦
بنو هلال : ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٨٩ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٩٦ ، ١٩٩
بنو هوازن : ٣٥
بهند : ١٥
بئر بزاخه : ٣٨
بئر معونه : ٣٣
بيت المقدس : ١١١
بيروت : ١٢٠
بيشه : ١٨

(ت)

تامر : ١٠٣
تثليث : ١٨
تدمر : ٤٠
التراث : ٩٢
تربه : ١٨ ، ٣٥
الترك : ٤٤ ، ٦٩
التغريبه : ٥٠ ، ٦٩ ، ١٠٩ ، ١٣٠ ، ١٣٠
تغلب : ٤٧ ، ٥٧
تميم : ٢٣ ، ٢٤
تميم بن المعز : ٧٣
التنجيم : ١٩٨
توزر : ١١٣ ، ١٧٣
تونس : ٧٢ ، ٧٣ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٤٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥
تهامه : ١٦ ، ١٩ ، ٣٧ ، ٧٨
تيان : ١٨
تيدمه : ١٠٦

(ث)

ثقيف : ١٨ ، ٣٦ ، ٤٤

(ج)

جابر : ١٠٣ ، ١٠٧
الجازية : ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥
الجاهلية : ١١ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٦٢ ، ٨١
الجبل الاخضر : ٦٢
جبل بنى هلال : ٥٦
جبير : ١٠٣ ، ١٠٧
الجوجرانى : ٦٦
الجركسى : ١١١ ، ١٧٧
جذام : ٦١
الجزيرة الايبيريه : ٥٣
جزيرة العرب : ١١٦ ، ١٩٣
الجزيرة العربية : ١٧ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨
جسار بن جاسر : ١٠٦
جشم : ٣٦
جشم بن معاوية : ٦٢ ، ٦٧
الجعافرة : ٦٠ ، ١٠٦
الجعرانة : ٣٧
جعفر : ١٨٧
جعفر بن أبى طالب : ٦٠
جعفر بن محمد : ١٢٩
الجعيدى : ١٠٦
جلذان : ١٨
جمال الدين شيحه : ١٨٨
الجمالية : ١٩٧ هامش
الجن : ١٩٩
الجوار : ٨٦
جواد : ١٧٠
جوان : ١٢٧
جهار : ٢٨
جهينه : ٦١

(ح)

حازم : ١٠٣
الحاكم بأمر الله : ٦٨
الحبشة : ٦٠ ، ١٧٣
حبيب بن مالك : ١٥
الحجاج بن يوسف الثقفى : ٤٣ ، ٤٤
الحجاز : ٢٠ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ١٤٤ ، ١٢٩ ، ١٤١
الحجر الأسود : ٥٠
الحرام : ١١٥
حران : ٤٦
حرب : ١٥
حرب بن أميه : ٢٧
حروب الردة : ٣٨
الحرة : ١٩
حرة بنى سليم : ٣٣
حزوة والنير : ١١٠
حسن : ١٠٨ ، ١١٢
الحسن : ١١٣ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٩
السلطان حسن ، ١٨٩ ، ١٩٢
حسن بن سرحان : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ١٨٣ ، ١٨٥

الحسن بن سرحان : ١١٤ ؛ ١٢٩ ؛ ١٣١ ؛ ١٨٧ ؛ ١٩٥
الحسن بن علي : ١٢٩
الحسين بن محمد : ١٢٩
حلب : ٥٤ ؛ ١٠٩ ؛ ١٦٢
الحلف : ٨٦
حماد : ١١٣
حماه : ١٠٩ ؛ ١١١
الحمس : ٢٨
حمص : ١١١
حمود : ١١٣
حمير : ١٣١ ؛ ١٧١
حنظل : ١٠٣
حوران : ٥٦
الحوف الشرقي : ٤٥ ؛ ٥٤ ؛ ٦١ ؛ ١١١
الحيرة الخمية : ١٧

(خ)

الخابور الأعظم : ٤٢ ؛ ٤٣
الخازر : ٤٢
خالد : ٤٥
خالد بن الوليد : ٣٩
خالد بن عبد الله القسري : ٤٥
الخزاعي : ١١٠
الخشالك : ٤٣
خصفة : ١٤
خضرة : ١٠٤ ؛ ١٠٥ ؛ ١٠٦ ؛ ١٩٤
الخضرة : ١٧١
الخفاجي : ١١٢
الخلاف الزناتي : ١١٤
الخلع : ٨٥
الخليج الفارسي : ١٧ ؛ ١٩
خليفة الزناتي : ١١٢ ، ١٦٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩
الخليفة : ١٩٧ هامش
الخليع : ٨٥
خندف : ١٤
خندق كسرى : ١٩
الخنساء : ١٥ ؛ ٢٧
خيال الظل : ١٩٦

(د)

داحس والغبراء : ٢٤ ، ٢٧
دارا : ١٨
دارفور : ١٧٣
الدبيسي بن مزيد : ١١٠
الدرب الأحمر : ١٩٧ هامش
الدردا : ١٧
دريد : ١١٤ ، ١٣٠ ، ١٨٧
الدلتا الشرقية : ٥٩
دلتا النيل : ٥٩
دمشق : ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ١١١
دمياط : ١١١
الدولة الزبيرية : ٦٥ ، ٧١ ، ٧٣
الدولة الفاطمية : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ١٦٦
الدولة القرمطية : ٥٧
دياب : ٦٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٤٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ؛ ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ؛ ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩

الديار المصرية : ٦٤
الديوان : ١٩٤
ديوان مصر : ١٩٥

(ذ)

ذات الإثل : ٢٤ ، ٢٧
ذات عرق : ١٩ ، ٢٠
ذبيان : ٢٤ ، ٢٧ ، ٩٣
ذو الحليفة : ٢٨
ذو الحلصة : ٢٨
ذو سويس : ١٧

(ر)

رب : ٨٢
الربابة : ١٥٤ ، ١٥٥
الربذة : ١٧
ربيرا : ١٢٤
ربيعة : ١٥ ، ٥٤ ، ٦٧
ربيعة بن أبي ظبيان : ٢٦
ربيعة بن سعد : ٦٠
ربيعة بن عامر : ٥٦
الرحمان : ٢٥
رزق : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
رزق بن أبي زيد : ١٧٣
الرصد : ١٩٨
رعل : ١٥ ، ٣٢
رفاعه : ١٥
رفح : ٥٩
الرقم : ٢٥
ركبه : ١٥
الريح : ٧٩ ، ١٨٧
الرمز : ٩٣
رواحه : ٧١
الروم : ٤٩
رياح : ٦١ ، ٦٧ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣١ ،
١٦٩
الريادة : ١٠٩ ، ١٢٠ ، ١٥٢
ريه : ١٩٤

(ز)

الزاب : ٤٢
الزاب الأكبر : ٤٦
الزبيريون : ٤٢
زبيه : ١٨
الزحلان : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥
الزريقات : ١٧٣
زغبة : ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٢ ، ١٠٤
١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
١٦٩
زغبي : ١٩٩
زفر بن الحارث : ٤٢ ، ٤٣
زكوان : ١٥ ، ٣٣
زناته : ٦٣ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤
الزناتي : ١٩٥
الزناتية : ١٥٢
الزنج : ٩٤
زهير بن أبي سلمى : ٢٧
زواوة : ١١٣ ، ١٧٣
زياد بن عامر : ١٣١
الزيادية : ١١٦
زيد : ١٥
زيد العجاج : ١٣١
زيدان : ١١٤
زيد : ١٩١

زيدان : ١١٥ ، ١٩١
زيدان بن أبي زيد : ١١٦
زيدان بن غانم : ١١٠ ، ١١٢
زينب بنت خزيمة : ٣٤

(س)

سبيع : ١٥
السحر : ١٩٨
سرت : ١١٣ ، ١٧٣
سرحان : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧
السرو : ١٠٧
السرو وعباده : ١٠٣
سروة : ١٠٩ ، ١٧٤
سعد : ١٤ ، ١٥
سعد بن أبي وقاص : ٣٩
سعد بن بكر : ٣٦
سعد بن مسعود : ٩٣
سعدى : ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ، ١٩٤
سلامه : ١٠٧ ، ١٣٠
سلامه بن رزق : ١٣١
السلمية : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١
سلوب : ١٥
سلول بن مره : ٦٢ ، ٦٧
سليم : ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ١٣١ ، ١٧٣
سليمان : ٤٣
سماك : ١٥
السماوة : ٤٢
سنان المرى : ٢٧
السهم : ٩٠
سواءه : ١٥
السوارقية : ١٧
السؤبان : ٢٤
السودان : ٦٠ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٦
السوس : ٧٩
سومر : ٥٢
السويس : ٥٩
السيدة زينب : ١٩٧ هامش
السيرة : ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨
السيرة الهلالية : ٩٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩
سيرة بنى هلال : ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠
السيف : ٩٠ ، ١٨٧

(ش)

شارلمان : ١٢٥
الشام : ١٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٦٨
الشجرتان : ٥٩
شبه جزيرة سيناء : ٥٨
الشريف بن هاشم : ١٢٩
شعب جبلة : ٢٥
شكر : ١١٠ ، ١٣٠ ، ١٩٣
شكر بن أبي الفتوح : ١٢٩
شكر الشريف : ١٢٨
شمة : ١٠٤ ، ١٠٧
شيحة : ١٠٤ ، ١٨٣ ، ١٩٤
الشيعة : ٤٢

(ص)

صالح بن أبي زيد : ١١٤
صحراء الشام : ٥٨
صخر بن عمر الشريد : ٢٧
صريخة : ١٨
الصليب : ١٧ ، ٩٥
الصليحى : ١٣٠
صلصيل : ١٣٠
صفينة : ١٧
صعصعة : ١٥
الصعيد : ٥٦ ، ١٠٩
الصعيد الأعلى : ٦٠ ، ٦٩
الصعيد الأوسط : ٦٠
صعيد مصر : ٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٦ ،
صنهاجه : ٦٤ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤
١١٥ ، ١١٦

(ض)

ضباب : ١٨
الضحاك الفهرى الشيبانى : ٤١
الضبعان : ١٧
ضمار : ٣٨

(ط)

الطائف : ٣٧
طرابلس : ٧٢ ، ١٠٩ ، ١١٥
طبرق : ١٧٣
الطبرى : ٥٤ ، ٩٤
طريق الحجاج : ٦٠
طريق حورس : ٥٩
طريق الفلسطينيين : ٥٩
الطميلات : ٥٩
طنجه : ١١٣
طئ : ٦١

(ظ)

الظاهر بيبرس : ١٩٩
ظفر : ١٥

(ع)

عابدين : ١٩٧ هامش
عارمه : ١٨
عاليه : ١٩٣
عامر : ١٥ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ،
٣٤ ، ٤١ ، ٤٨ ، ١٠٣
عامر بن ربيعه : ١٨
عامر بن الضرعام : ١١٠
عامر بن الطفيل : ٢٧ ، ٣٣
عامر بن عوف : ٣٧
عامر الحفاجى : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩١
عامر بن صعصعة : ١٥ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
٢٦ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٥٠ ، ٥٤
العبابدة : ٦١
العباس بن مرداس : ٣٨
العباسية : ٥٧
العباسيون : ٤٨ ، ٥٨ ، ٩٤ ، ٩٧
عبد الله بن الزبير : ٤١
عبد الله بن حازم السلمى : ٨٩
عبد الملك بن مروان : ٤٣
عبد مناف بن هلال : ٦٨
عبس : ٢٤ ، ٢٧ ، ٩٣
عبد الله السفيانى : ٤٧
عبيد الله بن زياد : ٤٢
العبيدية الشيعية : ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠
العبيديون : ٦٤
العجم : ١١٠ ، ١٨٣

مدس المطاحل : ١٧
مدوان بن عمرو : ٦٢ ، ٦٨
العدوة الشرقية : ٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ١١٤ ، ١١٦
العدوة الغربية : ٦٧
عذباء : ١٠٣
العذيب : ١٩ ، ٥٩
العراق : ١٧ ، ١٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٧٦ ، ١٠٩ ، ١١٠
العرجاء شوان : ١٧
عرفه : ٢٩
عرفات : ٢٠
العريش : ٥٩ ، ١٠٩ ، ١١١
العزيز بالله : ٥٦ ، ٥٨
عسقلان : ٥٩
العصبية : ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٧١ ، ١٨٢
عصران بن داغر : ١٠٥
عصفان : ١٧
عصيه : ١٥ ، ٣٣
عقيل : ١٥
عكاظ : ١٨
عكرمه : ١٤
العلام : ١٨٣
على بن أبي طالب : ٣٣
على أبو الهيجات : ١٧١
على بن رزق : ١١٤ ، ١١٥
على بن محمد : ٩٤
على مبارك : ١٩٧ هامش
عمان : ٥٦
عمايه : ١٧
عمر بن الخطاب : ٣٥
عمر بن العزيز : ٤٤
عمر بن هبيره : ٤٤
عمرو : ١٤
عمره : ٦٧ ، ٧١ ، ١٠٩ ، ١٩٤
عمره بن أسد : ٦٢
عمير : ٤٣
عمير بن الحباب السلمى : ٤٢
العناپس : ٢٧
عوف : ٦٨
عيلام : ٥٢

(غ)

غادرة : ١٥
الغاضرة : ٥٩
غانم : ١٠٣ ، ١٠٧
غالب بن عبد الله الليثى : ٣٣
غروش : ١٨
غزة : ٥٩ ، ١٠٩ ، ١١١
الغزوة : ٥٠ ، ٦٨
الغزوة الهلالية : ٥٤ ، ٥٦
غصن البان : ١٠٧
الغضبان : ١٦٨
غطفان : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٦٢ ، ٦٧
غور فلسطين : ٤٢
غوطة دمشق : ٤١

(ف)

فاس : ١٧٣
فارس بن أبي الغيث : ١٣١
الفاطميون : ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٢٩
الفاطمية العبيدية : ٥٧

الفتق : ١٨
الفجاءة : ٣٨
الفجار : ٢٤ ، ٢٧
الفرات : ١١٠
فران : ١٧
الفرس : ٣٩ ، ٤٤
الفرع : ٣٣
الفرما : ٥٩ ، ١٠٧
فزاره : ٦٢ ، ٦٧
فزارة قيس : ٦١
الفسطاط : ٤٥ ، ٦٠ ، ٦١
فضل : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٣٠
فهم بن قيس : ٦٢ ، ٦٨
الفوايد : ١١٠
فون كرامر : ٩٣
فيف الفحلتين : ١٧
فيف الريح : ١٧ ، ٢٤ ، ٢٧
الفيوم : ١٧٣

(ق)

قابس : ١١٣ ، ١٧٣
القاهرة : ٦١ ، ١٩٧ ، ١٩٨
القائم بأمر الله : ٦٥
قبرص : ١٦٢ ، ١٨٣
قبة الصخرة : ١١١
قحطانية : ٦٢
قدامة : ١٩
القدح : ١٥٥
القدس : ١٠٩
القرامطة : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١
القريحة : ١٨
قريش : ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٦٠
قسنطينة : ٧٢
قشير : ١٥
قضاعة : ٤٠ ، ٦٠ ، ٦١
القطيف : ٥٧
القفا : ١٨
قلح : ١٧
القلعة : ٧١ ، ٧٣ ، ١١٣ ، ١٧٣
القلقشندى : ٩٧
قليوب : ٦١
قمعه : ١٤
قنفذ : ١٥
قوص : ٦٠
قوصون : ١٩٧ هامش
القيروان : ٦٥ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٣ ، ١٧٣
قيس : ١٤ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٦١ ، ٩٣
القيسية : ٢٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ٩٤ ، ٩٥
قيس عيلان : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٣٨ ، ٣٩

(ك)

كتامة : ٦٣ ، ٦٤ ، ٧١
الكدر : ٣٣
الكديد : ٢٤ ، ٧٩
كريزويل : ٩٥
كعب : ٣٦
الكعبة : ٥٠
كفف : ١٧
كلاب : ١٥ ، ٣٦
كلب : ٤١

الكلبي : ٢٨
الكنجة : ١٥٤
كنانة : ٢٤ ، ٢٦
كنعان : ٥٢
كهلان : ٥٤
كورة جرش : ٢٠
الكوفة : ٤٩

(ل)

لارجو : ١٢٧
ليبه : ١٧
لحم : ٦١
لبن (أدوارد) : ١٢٧ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٨٢ ، ١٩٨

(م)

المأمون : ٤٦
مآب : ٤٠
ماريه : ١١٠ ، ١٦٨ ، ١٩٤
مازن : ١٥
المـاضي بن مقرب : ١١١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧١ ، ١٩٣
مارسيه : ٦٨
مالك بن عوف : ٣٦
مايرز : ٨٩
المثنى الشيباني : ٣٩
محارب : ١٤
محمد بن رجال : ١٢٧
محمد بن خزر : ٧٣
محمد بن شكر : ١١٤ ، ١١٦
المدينة : ١٧ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٩ ، ١٣٠
مراكش : ١١٣
مرج راهط : ٤١
مرداس : ١٣١
مرداس بن رباح : ٧٢
مران : ١٨
مرعى : ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٩٥
مره : ١٥
مروان : ٤٢
مروان بن عبد الحكم : ٤١
مروان بن محمد : ٤٦
المستنصر : ٦٤
المستنصر بالله : ٦٥
مسجد بني هلال : ٥٤
المسجد الأقصى : ١١١
مسعود : ١٠٦ ، ١٠٧
مصر : ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٩٩ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٦٥ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٩٠
مصر العتيقة : ١٩٧ هامش
مضر : ١٤ ، ٤٨ ، ٥٤
مضرية : ٤٠ ، ٦٢
المضيج : ١٨
مطرود : ١٥ ، ٦٨
معاويه : ١٥ ، ٤١
معاويه بن أبي سفيان : ٢٧
معدن البرم : ١٧
المعز : ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٣
المعز بن باديس : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٩٧
المعقل : ٦٢ ، ٦٧
المغاربه : ٦٩
مغامس : ١٦٣

المغرب : ٦٤ ، ٧٩
المغرب الأقصى : ٥٧ ؛ ٧٩
المغرب الاوسط : ٧٣
المغل : ٥٢ ؛ ١١٠
مغواره : ١١٣
المقريزى : ٦٠
مكايل : ١٢٧ ؛ ١٥١ ؛ ١٥٧
مكدونالد : ١٧٧
مكناس : ١٧٣
مكه : ١٧ ؛ ١٨ ، ٢٩ ؛ ٣٥ ؛ ٣٦ ،
٤١ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
١١٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٤٥ ،
١٩٣
الملك الصالح : ١٠٣
منبه : ١٥
المنذر : ١٠٢
منصور : ١٤
منعم : ١٠٥
المهاجرون : ٣٧
المهدية : ٦٥ ، ٦٨ ، ٧٣
مهذب : ١٠٣
موسى : ١١
موسى بن يحيى : ١٣١
الموصل : ٥٤
مى : ١٦٨ ، ١٨٣ ، ١٩٥

(ن)

الناصر : ١٨٦
ناصره : ٧١
الناعسة : ١٩٤
نافلة : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٩٤
نائل : ١٠٣
نبيشة بن حبيب السلمى : ٨٩
النتأة : ٢٥
نجد : ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٤ ،
٥٦ ، ٥٩ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٠٣ ،
١٠٧ ، ١٠٨
نجد الوز : ٢٠
نجد برق : ٢٠
نجد الحجاز : ٢٠
نجد حمير : ٢٠
نجد الشرا : ٢٠
نجد عفر : ٢٠
نجد كبكب : ٣٠
نجد مذحج : ٢٠
نجد مريع : ٢٠
نجد اليمن : ٢٠
نجران : ١٨
النخل : ٥٩
نزار : ٤٨
النزارية : ٤٠
النسار : ١٨
النصارى : ٦٤
نصر : ١٩١
نصر الدين بن دياب : ١١٦
نصر بن معاويه : ٥٤
نضر : ٣٦
النعمان : ١٠٣ ، ١٨٣
نعيم : ١٠٥
النقراوات : ٢٥
نمير : ١٥
النويرى : ٢٣
نور بارق : ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٩٣
النوبة : ٦٠
نوح : ١١
نولدكه : ١٧٧

(ه)

هارتمان : ١١٩
هارون الرشيد : ٤٧
هبيب : ٦٨
هذباء : ١٠٣ ، ١٠٧
هرم بن سنان : ٢٧
هشام بن عبد الملك : ٤٤ ، ٥٤
هشام : ٤٥ ، ١٠٣
هلال : ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ،
٢٣ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
٦٩ ، ٧٢ ، ١٠٨ ، ١١١ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١٦٩ ، ١٧٤
الهلال : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦
هلال بن عامر : ٥٥ ، ٦٧ ، ١٠٢
هلالى : ٨٧ ، ٩١ ، ١٠٥ ، ١٩٦
الهلالية : ١٢ ، ١٤ ، ٢٥ ، ٤٧ ،
٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ،
٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ،
٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ،
٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٣١ ،
١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،
١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ،
١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ،
الهمدانى : ٢٠
الهند : ٧٩
هوارة الجيزة : ١١١
هوازن : ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ،
٢٨ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
٤٥ ، ٥٥
هوميروس : ١٦١

(و)

الواثق : ٤٩
وادى بلاقع : ١١٤
وادى الرمة : ٢٠ ، ٢١
وادى العباس : ١٠٢
وادى الغبائن : ١١٢
وادى الكوفة : ٥٤
وائلة : ١٥
الوتدة : ٢٦
وطفه : ١٩٤
الوليد : ٨٧
الوليد بن عبد الملك : ٤٣
الوليد بن يزيد : ٤٥

(ى)

اليازورى : ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨
ياقوت : ٢٠
يبمبم : ٢٠
يحيى : ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٧٣
يدى : ١٨
يزيد : ٤١
يزيد بن المهلب الأزدى : ٤٣
يزيد الناقص : ٤٦
اليفرنى : ٧٣

اليمامة : ١٨ ، ١٩
يمانية : ٦٢
اليمانية : ٤٦ ، ٤٧
اليمن : ١٩ ، ٧٩ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠
اليمنية : ٦٢ ، ٦٧
يوم جبل البشر : ٤٣
يوم الجمل : ٣٩
يوم سنجار : ٤٣
يوم صفين : ٣٩
يوسف بن عمر : ٤٥
اليونان : ٦٤
يونس : ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٧٣

تصـــويبات

ص	س	خطأ	صواب
٢٧	٩	داحص	داحس
٣٨	١٤	ءلان	عيلان
٤٥	٣	يوسف ابن عمر	يوسف بن عمر
٦٥	٢	بادين	باديس
٦٧	١٩	جشم ابن معاويه	جشم بن معاويه
٦٨	١	نور	ثور
٦٩	هامش ٣	عند	عن
١٠٤	٣	وكما	كما
١٠٦	١٢	مسعودا	مسعود
١٣٢	٢٠	مضرب	مقرب

FACULTY OF ARTS

"AL-HILĀLIYA"
IN
HISTORY & FOLK-LITERATURE

BY

ABD EL-HAMID YOUNIS

D. lit. (Cairo)

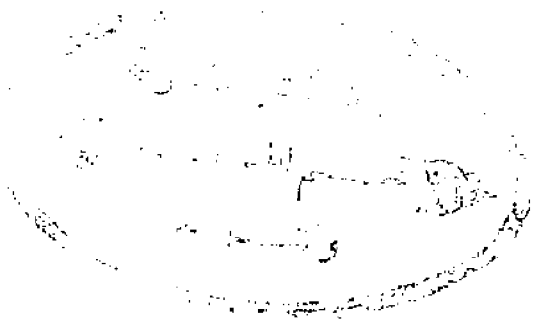

CAIRO UNIVERSITY PRESS
1956

"AL-HILĀLIYA"
IN
HISTORY AND FOLK LITERATURE

The theme of this treatise, namely "Al-Hilaliya in History and Folk literature" is dealt with in two main divisions: an introduction and two books.

In the introduction, some necessary principles have been treated, comprising: (*a*) the relation between literature on the one hand and physical and social environment on the other. (*b*) the relation between literature and psycohlogy with clear distinction between individual and group-psychology. It was necessary to correct a familiar misconception on the part of some modern writers who assume that the study of folk literature implies a desire to supplant classical literature. In fact the study of folk literature, like any other branch of study, is not motivated by any class consciousness whether on a local or a national plane. An analogy has been drawn between folk and classical literatures, and a conclusion has been thereby reached that each of them devices a style of its own that is deemed most suitable for the achievement of its particular ideals of expressiveness. Finally a difinition of folk literature has been attempted, covering the branches and fixing the field there of. Such a definition is of necessity a tentative one that is only adequate for explanatory, perhaps, because the new literary method and the very nature of ort are clearly averse to hard and fast logical definitions. Literary and artistic concepts vary so widely in varied environments, generations and individuals.

The subject of treatise implies clear dualism. But this dualism, as recorded in the introduction, is merely a sham. This treatise has tried to show the deep relation between literature and history. Then, two different methods are applied: 1) The historical method where by change is followed up in a fixed period and a fixed locality, with special stress on societal aspects. 2) the literary method whereby the artistic laws are followed up with special stress on aesthetic aspects wherin the artist is connected

with his art, which is in turn reflected on the listener. In this connection it must be confessed the application of this method to folk literature is particularly difficult, because it lacks clear distinction between composer and listener.

The historical aspect comprised in Book I. of this treatise has been studied apart from the folk literary text. Thus the objective treatment is not impaired by the implications of the literary text. The auther thereby refused to be unconsciously led to make an arbitrary identification between the real historical fact and the aesthetic of imagination.

In the first two chapters of Book I. the history of Al-Hilāliya has been traced. The first chapter deals with their history before Islam. It begins with a difinition of Al Djāhiliya, its beginning and its end. Stress is being laid on the most important there of, namely thier geneology, since their highest ancestor: Kais ʿAilan. Then follow their important branches: Solaim and Hawāzen, and the Hawāzeni clans: ʿĀmer and Hilāl. Attention is being drawn to the totemic significance implied in such a mythical geneology. Then the auther turns to physical environment, discussing what geographers'views on nomadic localites and Nagd in its peculiar topographical terminology. Having considered the effect of such an environment on its inhabitants, the auther steps forward tracing the events that happened to these tribal communities called the "ʿAyam". Clear distinction has been made between two main Categories: The extrenal ʿAyām, which broke out between the Kaisi tribe in general, and other similar tribes, and the internal ʿAyām that broke out between the Kaisi unities among themselves. Chronological form of ʿAyam has been drawn, and the role of ʿĀmer and Hilāl clearly shown.

Tribal heroes and idols have been carefully scrutinised with a view to discerning individual or societal features. The chapter ends with some linguistic peculiarities recorded about them.

In the second chapter, their history in the Islamic period is treated. The chapter opens by furnishing a general picture of the Arab cities and their relation to nomadic life. It records the psychological evolution of the whole Arabian community towards solidarity, making use of the sacred Koran as a record of such evolution. It tries to make use of societal interpretation of historical events. with speciel stress on the communal stimuli and the emergence of the first national nuculus in Medina. To meet this end it was necessary to trace the relation between the growing

Islamic state and the tribal units, both in peace and war, with special attention to the part played by the Kaisi tribe in general and the ʿĀmeri or Hilāli clans in particular. The consideration was given to peaceful means, either conciously or unconciously adopted for the realisation of the desired solidarity. Distinction was made between religious and tribal forces or ʿAssabiyas. Most remarkable among the battles and fueds that took place is undoubtedly Honain's. It marks the climax of that bloody conflict between independence and solidarity, as well as the turning point in the development of the whole Arabian society. Despite the reaction of the tribal spirit after the death of the Prophet, the days of the Djahiliya were over. The tribal spirit had given way to nationalism, the nation being only divided into ʿAdnaniya and Kahtaniya, or Kaisiya and Yamaniya. This nationalisation of the former tribes however, was not wholly complete. Some units stood alone in the desert without being involved in the stream of evolution. The societal method is also applied by the auther in view of the civil wars that broke out in the Moslem community e.g. the civil wars that occurred between the rise, decline and fall of Ummayad dynesty which can all be traced back to that former tribal feud. In spite of the loyalty of Solaim in general and some of their influential chiefs in particular to Muawiya and his descendants, most of Kais were sympathiseres of Zubair. Aspects of similarity between these civil wars and the pre-islamic ayām has been clearly pointed out. Abd el Malik's successes could thus be accounted for. It depended on the realisation of a kind of equilibrium between the two national divisions; The Kaisiya and the Yamaniya, or to put it in modern phraseology, between supporters and opposers. Some governors, attempted to detract the force of the tribal spirit by directing it deliberately to supposedly imperialistic ends, hence the transportation of some Solaimi clans to the Nile Delta. A survey was then be given of the spread of nationalistic spirit throughout the Arab, or Arabicised world. The chapter was summed up by the exploitations made by the Solaimi and Hilali tribes in the Holyland, their rebellious attitude towards the central government, and their alliance with the Karmatians.

It was necessary to assign a special chapter for the most important event in all Hilali history namely the conquest. Its importance in this treatise cannot be overemphasised. It eclipsed all other events that befell the Hilaliya and their allies, and above all it is the subject round which the famous literary text revolves. In this connection emphasis is made

on the societal method that is strictly applied in this chapter. The scientific view put forth by Prof. Mayers and his colleagues is therein accepted. Their opinion is confined to the climatic factor which they believe to be the sole reason for societal or communal movements. After a survey of the general human attitude of the Arabia peninsula, and the four great movements that emerged from that plateau, I dis-cerned two forms of human activity to be therein existent. The genuine move as exemplified in the Arab conquest, and the unwholesome move sponsored by the will of Kaliph, vassal or governor. Comparison was made between the Arabs participating in that tremendous human wave and the nomads unwilling to leave the desert or, if bound to, seeking an environment similar to their own, going on with pastoral life and keeping their peculiar societal features intact, except for the slightest modifications. Survey thence made of the various localities of Hilaliya in the peninsula and throughout the conquered lands: Mesopotamia, Syria and Egypt. After minute scrutiny of the tribal morphology, the auther divides the Hilali conquest into two periods different in shape and yet similar in the goal they realised. 1) The first period took the form of a communal emigration involving various flactuations. The relation between the Hilaliya and their kinsmen East of the Nile has been traced and a rough sketch of the route they took to Egypt has been drawn. In this respect geographical researches in this particular Zone proved to be great help. *The treatise goes on to describe the Fatimid policy towards the Hilali* bedwins which might be summed-up in using them as instruments for the final overthrow of the already declining Abbasid Caliphate. As the hilaliya were not all of Hilali descent, the following question must be answered: How and why did they come to be known as such ?

The second stage took the form of conquest which led them from Egypt to the Maghribs. Here the nomadic settelments in the west of the Nile are carefully traced. Having rejected the view that dispute between the Fatimid dynasty on the one hand and the Senhadjy on the other, was the sole reason for this westward conquest, the auther insists that the natural factor was stronger than any force or temptation. Easily enough that period could be divided into two minor stages. The first was against Senhadja, the second against Zenāta. An explanation is subsequently given for those Hilaliya's keeping to their nomadic life, their refrain from settelment and civilisation, their lack of impetus to construct a state. The falsity of the comparison made between Arab coquest and

the latter Hilali is thereby made obvious. The chapter ends with tracing the result of this great event, namely the completion of the arabicisation of the Barbars in North Africa. In view of the criticism by methodologists of the historicel method adopted in the treatise on the ground of its over-abstraction and its lack of the personal element, and lack of personification. The fourth chapter attempts a psychological interpretation of the historical fact. Distinction between individual and group psychologies is re-emphasised, and both the descriptive and the analytic methods are utilised. The field such a study is strictly confined in history. A general psychological classification for human groupings has been made wherein the place of Hilaliya to other communities is adequately defined. The physical factor must endlessly receive the considerations. In dealing with the most important feature in the Hilali society, the Patriarch, it was necessary to contrast between the predominance of male and the subordination of female in such a familiar herarchy. In the attempted explanation it was deemed suitable to show the relation between the two sexes by examining endogamous and exogamous rules in marriage rites. The strict laws of intermarriage between clans and tribes are also traced with a view to giving a cleap glimpse of the Hilali crystalline community. Having studied what social paychology calls "The group mind" the auther could make use of the strict Hilali societal laws: khalà or civil death; al walā' or civil sovereignty; al Djewār or civil protection and al hilf or civil alliance. All these institutions cannot be attained without explicit societal organisation the group mind was paramount, to the exclusion of all forms of individualism, hence the auther's recourse to using the word: "one" instead of: individual. In dealing with the second important societal feature, i. e. the belligerant instinct, it was easy to observe the limitations of Hilali ability in warfare and the peculiar forms of their arms and tactics. There was a strong relationship between every Hilali and his stead.

The binding force in every Hilali migration has received careful study. Lastly comes the study of the ways effecting the expansion of their experiences, glories, and emotions in time of peace and war, their culture, heritage or legacy. The chapter ends by confessing that no herald badge or slogan was ever used by these wandering nomads.

The chapters of Book II. are not stages in a wider development; they are only aspects of one subject.

The first chapter explains that the folk literary text is everlasting. It has the same affinities of an organism in growth and reproduction. It was necessary therefore to notice the phases of that growth on the one hand, and to gather the separated units on the other. The older division of the literary text (Sirat Bani Hilal) according to locations so long accepted by some orientalists is definitely rejected by the auther. It divided the text into three series, each of which deals with a certain locality: the first was about their adventures in Al Sarw and ʿObāde, the second in Nagd: the third about their Westward megration. He divides the text on a new basis on the societal method, that befits the folk literary organism: It is rather a biological basis, according to which the text could be divided into three generations; the second with their heroes; and the third with their successors.

Particular study has been alloted to the Hilali societal features, e.g. patriarchism geneology, alliance, group spirit and revenge. The adventures, and famous days, especially in their great Westward migrations have been carefully taken their latest generation brings us into the scope of a new national feeling, that of the Barbars.

In the second chapter attempts are made to trace the history of the folk literary text. Unfortunatly, however such a history cannot be defined with certainty. For unlike classical literature does not care for composers, reciters, and various traditions, Folk literature has a further disadvantage. It does not depend on minute recording. It must be admitted that this text is more significant as an auto-biography of its own than any other historical document.

I must confess that orientalists were the Pioneers in this branch of study in Arabic literature. Special mention must be made to: (1) Renè Basset who published a monumental essay on the subject in 1885. (2) Ahlwardt whe recorded a description and summary of the various manuscripts of Sirat Bain Hilal in his famous catalogue published in 1896. (3) M. Hartmann who studied R. Basset's essay, examined Ahlwardt's catalogue and issued in 1898 a scholarly treatise on the Hilali epic. (4) Alfred Bel who recorded an Algerian recension, translated it with an introductory essay and notes in 1903.

After criticising the work of these eminent scholars, the auther finds it encumbent to study the text itself out of the lips of a folk reciter. The auther makes point of the relation between the Arabian folk literature

on the one hand and the Southern European folk-literature on the other. Many instances of resemblance are being pointed out, between the Hilali epic and the chançon de Roland, which suggest that one of them was the fore-runner of the other. All scholars agree on the French work being an imitation of the Arabian. Subsequently the various hypotheses have been summed-up putting into relief two different aspects in the life of the text: (1) the lyric, (2) and the epic.

The third chapter looks at the subject from a different angle, trying to put the Hilali text in its proper place among literary works. The chapter begins with a new definition of poetry and prose, correcting the views of some scholars about the nature of Arabian fiction. They hold that story telling in both classical and the colloquial Arabic dialects resorts indifferently to poetry or prose as vehicle of expression. Such a false opinion was the result of too basty a generalisation based on the study of one Arabian work namely: "Arabian Nights" and on an eastern romantic strain prevalent in "Oucasin and Nicholett",

Two different types are traced in the development of Egyptian folk literature: (1) The prosic. (2) The poetic. This distinction was based on the oral text and the differentiation in technelogy between various reciters thereof. The Hilali epic belongs of course to the first category; it is recited by a sh'āir (ministrel) and not a muḥadith (talker). It thus differs from the story of Zāhir, which had been previously studied by the writer.

Poetry is the main element in the sira. Prose, however had a vital function in its technique. In spite of its subordination to poetry. It serves in the production of the dromatic effects. It is similar to stage directions assisting a play reader to imagine the scenes and to observe the entrances and exits of the actors.

Having noticed the lyric element in the preceding chapter, it was deemed necessary to study its main features: (1) Love and adventure (especially in war). (2) Music.

Stress was laid on the turning point from the former element to the latter.

The existence of the professional reciters is a sign of sociatal development and national consciousness. It pushes the text forward to a new phase. It is characterised by dramatic devices in both gesture and action.

The musical instrument of the reciter is examined in detail. That the rabāb described by Lane in 1871 is founded to be different in some respects from that now used. In the reciters' jargon the former is called al Ḳadaḥ; while the latter is called al Kamandja. Explanatory illustrations of the poet, his instruments, and musical notes are herewith attached.

The fourth chapter is confined to comparison between "fact" as given by history and "fiction" as expressed by literature. The auther rejects the mythological feature of the Hilali epic, after the definitions laid down by authoroties in that anthropological field of study.

Another comparison is drawn between the history text and 'Ayyam el 'Arab (days of the Arabs) in matter, form, and function.

An overall glimpse is made of the Islamic world as reflected on the literary text. Such a vision enables the student to discover the additions, omissions. corruptions and interpolations made by fiction.

The psychological basis of such enlargments, and embellishments can be clearly depicted.

Take for example; (1) its accuracy in drawing the outer boundarces of the Islamic world as it was, or even as it is at present; (2) Its care for the part played by the Jews within the Muslem territory. (5) its omission of any form of centralised government throughout *that vast area of that world according to cities and not* according to states mentioned by history.

The group spirit as expressed in the text is more vigorous than that recorded by history

The part played by the female sex in the Hilali society is shown to be greater than that put forth by various chronicles and traditions. Their geneology as related by the epic is being examined. It moulded all their destinies in peace and war.

I moved with the picture of the Hilali communal migration. It was more accurate than that laid down by history. The auther then turns to military spirit in recruiting arms going to the battle field and chivalry. It is easy to depict the Hilali Arab from the western Berber.

The relation between the nomad and his steed. is more lasting and thrilling than historical. It is not difficult to observe the impact of Islam on tribal rites. It raised the moral standard, fixed the relation of the indivdual towards his kinsmen, and defined the rights and duties of

males and females. The chapter ends with the crystalline feature of the Hilali intellectual life: The legacy preserving their experiences, glories and other peculiarities throughout the generations. The rital function of the sira in nomadic societies is also traced.

The last chapter deals with the literary text in the Egyptian environment in particular. It was necessary to examine the stability of the Egyptian society underneath the everchanging surface. Many invaders came to Egypt. Many foreign dynsties were planted in the land. Many civilisations entered from the north, east and west; but Egypt stood still. It has the stronger nature. It conquered them all, and all were ultimately Egyptianised.

The Egyptian strain throughout the ages created traditions of its own. Story telling was the literary from most affected by the national element.

Linguistic dualism was the outcome of class consciousness. The Egyptian environment had assimilated the Hilali epic and utilised it as a vehycle of expressing its own nationalism, boasting of its independence, superiority and pride.

It is evident that the existence of the profesional reciter is as ancient as the Egyptian fellah. He is the outgrowth of inherent nationalism. Thus he raised the nomadic song to the level of a national epic.

Egyptian nationalism though conspicuous in the sira, is profoundly self-conscious. It is too cautious to make a strict separation betwen arabism on the one hand and egyptism on the other.

A special part of the epic entitled "diwan misr" deals with the relation of the Arabs to the Egyptian; the latter had not been led to under—estimate their own virtues. The events themselves depict in the slightest possible detail, the folk Egyptian philosophy of life. They assume that change comes from without. The characters are only instruments in the hands of this unseen force. That means that the human will is bound by a stronger one leading it to action, choosing the suitable time and selecting the proper person. The sira therefore lacks the unity of time, place and action.

All the characters were egyptised. The chief of the tribe was raised to a sultan, in his generosity and dignity and justice. The knight was raised to be the leader of the army in his bravery and

tolerance. The hereditary judge was raised to the position of high priest in his learning and piety. The enmity between clans was transformed into political struggle between parties. Adversary of the tribal chief was made a leader of opposition in his pride, frankness and fury.

The female was exemplified by two characters of a positive and a negative type. The former is unveiled, frank, married and virtuous. The latter is unloyal to her nation, but sincer and offectionate to her lover. Comparison is made between the characterisation in the sīra and that in Khaiāl el zil (shadaw-play). The difference in form between the sira as recited in the town and the Country is also pointed out. It is a difference of degree not of kind. It is obvious that the village life had modified the text, but it kept some of its older offinities. This is especially the case in the districts nearer to the desert, and among the inhabitants seeking their ancesstry within the Arab geneology.

Lastly, the auther analyses the society of those night clubs called al Kahwa (Cofé) in order to see it in its true perspective in group psychology and to observe its interaction with the sīra. This brings us to that everlasting feud between Djáāfira and Zaghāba. It is transformed into a genuine one that kept alive the inactive belligeral instinct.

The sira of Beni Hilal has a different function in that advanced environment of Egypt. Apart from its aesthetic value, it is true expression of Egyptian national consciousness, and a repository of purely Egyptian morals and ideals.

ERRATA

	Should be read	Page	Line
Ort	Art	3	19
Auther	Author	6	16
field such	field of such	7	9
cleap	clear	7	19
stead	steed	7	30
three generations; the second ...	three generations: the first with their ancestors; the second ...	8	12
whe	who	8	29
boundarces	boundaries	10	19
offinities	affinities	12	12